جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

بلاغة التَّنوُّع الإقناعي في رسالةِ "القمر" للرافعي ت(١٣٥٦هـ) قراءة في وظيفةِ الاستدراك

The Rhetoric of Persuasive Diversity in Al-Rafe'i's Epistle "The Moon" (d. 1356 AH) A Reading of the Function of Compensation.

إعداد

د/ رشا ممدوح كريم عبده
المدرس بقسم البلاغة والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

(العدد الرابع والأربعون)
(الإصدار الثاني-مايو)
(الجزء الأول (١٤٤٦هـ /٢٠٢٥م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٥/٦٢٧١م

بلاغة التَّنوُّع الإقناعي في رسالةِ "القمر" للرافعي ت(١٣٥٦هـ) قراءة في وظيفةِ الاستدراك

إعداد الدكتورة: رشا ممدوح كريم عبده
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر، الإسكندرية، مصر.
الإيميل الإلكتروني: ***rashamamdouh_islam.alx@azhar.edu.eg***

ملخص البحث

هدفتْ هذه الدراسة إلى: الوقوف على الوسائل الإقناعية المتنوعة في رسالة "القمر" للرافعي، وإظهار بلاغة الاستدراك، وتنوعه الوظيفي، والذي يعد أميز الروابط الإقناعية في الرسالة. واستراتيجية الإقناع تحقق الهدف الخطابي من النص، كما أن الوظيفة الإقناعية من أهم الوظائف البلاغية في التأثير على المخاطب، وإقناعه بمعتقدات الأديب وأفكاره، واستنباط الدروس الحياتية المستفادة من النص. واعتمدت في هذا البحث على المنهج: الوصفي التحليلي القائم على وصف الظواهر البلاغية، وتحليلها تحليلا بلاغيا دقيقا، بعد الاستقراء التام لكتابات الرافعي النثرية، وفهم المقصود من الرمزية الموجودة فيها؛ كي أستطيع التعامل مع النص، مع الاعتماد على المنهج النفسي؛ لمعرفة النماذج والأنماط النفسية في الرسالة، ثم المنهج التداولي؛ لفهم دور الاستدراك في التأثير والإقناع؛ بحيث يستطيع المخاطب التفاعل مع النص وربطه بحياته اليومية. وجاء البحث في مقدمة: بها عنوان البحث، وسبب اختيار الموضوع؛ بتوضيح الفرق بين الحجاج والإقناع، وأهداف البحث، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة البحث. ثم تمهيد: به معنى الاستدراك، وأدواته، والأثر البلاغي والتداولي له، ثم نبذة عن الرافعي وأدبه، ونص الرسالة محل الدراسة، ومدخلٌ لها. وقسمت البحث إلى ثلاثة مباحث: الأول: الوسائل الإقناعية المستخدمة في رسالة "القمر"، والثاني: تنوع الاستدراك وبلاغته في البنية الإقناعية للرسالة، والثالث: رسالة "القمر" من النسق المغلق إلى النسق المفتوح. ثم جاءت الخاتمة بها أهم النتائج، وبعض التوصيات، ثم الفهارس الفنية.

الكلمات المفتاحية: **بلاغة، إقناع، القمر، الرافعي، الاستدراك.**

The Rhetoric of Persuasive Diversity in Al-Rafe'i's Epistle "The Moon" (d. *1356 AH*) A Reading of the Function of Compensation.

Prepared by: DR Rasha Mamdouh Karim Abdo.
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Alexandria, Egypt.

Email: ***rashamamdouh_islam.alx@azhar.edu.eg.***

Abstract:

This study aimed to examine the various persuasive methods in Al-Rafi'i's "The Moon," and to demonstrate the eloquence and functional diversity of the argument, which is the most distinctive of the persuasive links in the argument. The strategy of persuasion achieves the rhetorical purpose of the text. Furthermore, the persuasive function is one of the most important rhetorical functions in influencing the addressee, convincing them of the writer's beliefs and ideas, and deriving life lessons from the text. In this research, I relied on the descriptive-analytical approach based on describing rhetorical phenomene and analyzing them with precise rhetorical analysis after a complete induction of Al-Rafei's prose writings and understand the intended meaning of the symbolism present in them, so that I could deal with the text. I also relied on the psychological approach to identify the psychological models and patterns in the message, and then the pragmatic approach to understand the role of recovery in influence and persuasion, so that the addressee can interact with the text and connect it to his daily life. The research came in an introduction: which includes the title of the research, the reason for choosing the topic; clarifying the difference between argumentation and persuasion, the objectives of the research, the methodology I followed, and the research plan. Then an introduction: which includes the meaning of correction, its tools, and its rhetorical and communicative effect, then a brief about Al-Rafi'i and his literature, the text of the letter under study, and an introduction to it. I divided the research into three sections: The first: The persuasive means used in the letter "Al-Qamar", The second section examines the diversity and eloquence of the argument in the persuasive structure of the thesis. The third section examines the "Al-Qamar" thesis, from a closed to an open format. The conclusion includes the most important findings, some recommendations, and technical indexes.

Keywords: ***Rhetoric, Persuasion, The Moon, Al-Rafi'i, Argument.***

مقدمة

الحمد لله الذي جعل لنا من العلم نورا نهتدي به، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه، أما بعد،

فإن الخطاب هو ثمرة اجتماع المرسل والمرسل إليه والسياق، ولكي يحقق الهدف المرجو منه يجب أن نتخذ معه استراتيجية تظهر المدلولات الثانوية منه، واستراتيجية الإقناع بوصفها تحقق الهدف الخطابي، وتعد اللغة من أهم وسائلها، فهي تتيح لمستخدمها أساليب عدة، يمكن استخدامها في الإقناع، ومن أهمها الأسلوب البلاغي، أي أن الوظيفة الإقناعية من أهم الوظائف البلاغية؛ لاستمالة المخاطب: والاستمالة هي تلك "العملية التي تقوم بها؛ للتأثير على الآخرين، عن طريق استخدام مختلف الأدلة والشواهد والبراهين والنوازع النفسية الميول والرغبات؛ لتقبل ما نقدمه لهم من أفكار، أو للقيام بعمل معين، أو تكوين اتجاهات محددة"(١). لذا اتجهت في هذا البحث إلى الإقناع، واخترت واحدا من الروابط الإقناعية التي كان لها أثر بلاغي رنانٌ بالمقال ليكون عنوان بحثي:

بلاغة التنوع الإقناعي في رسالة "القمر" للرافعي ت(١٣٥٦هـ)

قراءة في وظيفة الاستدراك

والذي دعاني للخوض في هذا الموضوع أن نظرية الحجاج تقدم "تصورا جديدا للمعنى من حيث طبيعته ومجاله، وتقدم أيضا أفكارا ومقترحات هامة بخصوص عدد كبير من الظواهر اللغوية"(٢)؛

---

(١) الأساليب الإقناعية للعلاقات العامة وتكوين الصورة الذهنية في المؤسسات الكويتية: للدكتور فهد هادي فلاح مطلق، المجلة العلمية لبحوث الإعلام وتكنولوجيا الاتصال، العدد التاسع، يناير، يونيو ٢٠٢١م، ص٢٨.

(٢) اللغة والحجاج: للدكتور أبو بكر العزاوي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، س١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص٨.

لأن الحجاج: هو تقديم الحجج والأدلة (المنطقية) المؤدية إلى نتيجة معينة، فيتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أو إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، والآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها[١]. والدلائل المنطقية تعتمد على العقل، بينما الأساليب الإقناعية تعتمد على العقل والعاطفة أيضا، أي تخاطب الجانب الوجداني للنفس البشرية؛ إذ إن الإقناع من: قَنَعَ بنفسه قَنْعًا وقَنَاعة: رضى، وأقْنَعَني أي أرضاني[٢]، والرضا لا يتأتى إلا بالتأثير النفسي الذي يعطي القدرة للعقل على تحقيق الأهداف. والإقناع إستراتيجية من إستراتيجيات الخطاب اللازمة؛ لتحقيق الهدف الذي يرمي له؛ إذ إن نجاح البلاغة الحالي يرجع إلى الاهتمام بوسائل الإقناع وما يتعلق بها من بحوث، فالإقناع عبارة عن "عملية خطابية يتوخى بها الخطيب تسخير المخاطب لفعل أو ترك؛ بتوجيهه إلى اعتقاد قول يعتبره كل منهما (أو يعتبره الخطيب) شرطا كافيا ومقبولا للفعل أو الترك"[٣].

ولأن كتابات الرافعي بها أفكار وقَّادة، وكلمات ولَّادة؛ لذا اخترتها لهذا البحث البلاغي، وآثرت معها كلمة (إقناع) عن كلمة (حجاج)؛ لما في أسلوب الرافعي من رقة إثْر مخاطبته لمحبوبته في هذه الرسالة؛ فهو يستميلها برفق حتى تشعر به، فكأنه ليس حجاجا بل حكاية يقصها عليها وهي في تمام الاقتناع بها.

- ويوجد بحثٌ كدراسةٍ سابقةٍ -ولم أطلع عليه- وهو معنونٌ باسم:

المستوى التركيبي وتجليات التحليل الأسلوبي، رسالة القمر لمصطفى صادق الرافعي: دكتورة سعاد حميتي، بحث منشور في مجلة الآفاق، جامعة زيان عاشور، الجلفة، ٢٠١٨م.

---

(١) ينظر اللغة والحجاج: ص١٦.

(٢) لسان العرب: لجمال الدين بن منظور، دار بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ. مادة (ق ن ع).

(٣) إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، لعبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، س٢٠٠٤م، ص٤٥١ /٤٥٩.

- **ووضعت أهدافا لبحثي ألا وهي:**

١- الوقوف على الوسائل الإقناعية في رسالة "القمر" للرافعي.

٢- إظهار بلاغة الاستدراك، وتنوعه الوظيفي، والذي يعد أميز الروابط الإقناعية في الرسالة.

٣- بيان أثر الاستدراك في توجيه المتلقي عاطفيا وذهنيا لما يريده الرافعي.

٤- الربط بين النص والواقع.

- **واعتمدت في هذا البحث على المنهج: الوصفي التحليلي القائم على وصف الظواهر البلاغية، وتحليلها تحليلا بلاغيا دقيقا، بعد الاستقراء التام لكتابات الرافعي النثرية، وفهم المقصود من الرمزية الموجودة فيها؛ كي أستطيع التعامل مع النص، مع الاعتماد على المنهج النفسي؛ لمعرفة النماذج والأنماط النفسية في الرسالة، ثم المنهج التداولي؛ لفهم دور الاستدراك في التأثير والإقناع؛ بحيث يستطيع المخاطب التفاعل مع النص وربطه بحياته اليومية.**

- **وكانت أول خطواتي في التحليل: هي الاستقراء التام لكل أبعاد الرسالة، وإشباع النفس منها، وضبطها بالشكل، ثم تقسيمها وتحليها تحليلا دقيقا؛ يعرض أهم الوسائل الإقناعية التي اتخذها الرافعي في هذه الرسالة، بحيث تستطيع فيما بعد استكشاف دور أسلوب الاستدراك، وتنوع استخدامه مما كان سببا في الارتقاء ببلاغة البنية الإقناعية للرسالة، ثم استنباط الدروس الحياتية المستفادة من هذا النص.**

- **وكانت خطة البحث على النحو التالي:**

مقدمة: **بها عنوان البحث، وسبب اختيار الموضوع؛ بتوضيح الفرق بين الحجاج والإقناع، وأهدافه، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة البحث.**

ثم تمهيد: **به معنى الاستدراك، وأدواته، والأثر البلاغي والتداولي له، ثم نبذة عن الرافعي وأدبه، ونص الرسالة محل الدراسة، ومدخلٌ لها.**

وقسمت البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: **الوسائل الإقناعية المستخدمة في رسالة "القمر". ويتمثل في:**

أولا: أسلوب التصوير الحسي.

ثانيا: الأسلوب الفلسفي الجمالي.

ثالثا: أسلوب التشويق التعبيري.

رابعا: الأسلوب اللغوي الإقناعي.

والمبحث الثاني: **تنوع الاستدراك وبلاغته في البنية الإقناعية لرسالة "القمر". ويتمثل في:**

أولا: الاستدراك الحسن.

ثانيا: الاستدراك الراقي.

والثالث: **رسالة "القمر" من النسق المغلق إلى النسق المفتوح.**

ثم جاءت الخاتمة **بها أهم النتائج، وبعض التوصيات، ثم** الفهارس الفنية.

وعلى الله قصد السبيل

***

تمهيد

تعريف الاستدراك، وأدواته، والأثر البلاغي والتداولي له:

الدَّرَك لغة: اللحاق والوصول إلى الشيء، والدِراك: اتباع الشيء بعضه على بعض في الأشياء كلها، واستدرك الشيء بالشيء حاول إدراكه به(١).

والاستدراك اصطلاحا: هو تعقيب الكلام بحكم مخالف لما قبله إثباتا أو نفيا، وذلك بعد كلام يتناسب مع الاستدراك، فلا يأتي في أول الكلام مباشرة(٢).

وأدواته: الحرف (لكنْ) و(لكِنَّ)، و(لكنَّ) هي حرف استدراك من أخوات (إنَّ) تدخل على المبتدأ فتنصبه ويسمى اسمها، وترفع الخبر ويسمى خبرها. وأما (لكنْ) بسكون النون فهي حرف استدراك يلزم لكونه عاطفا ثلاثة شروط: أن يليه مفرد، ولم يقترن بالواو، ويسبقه نفي أو نهي، فإذا فقد أحد الشروط كان حرف ابتداء واستدراك يدخل على الجملة الاسمية والفعلية مثل قوله تعالى: ""وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ "(٣)، والواو في هذه الحالة تكون هي العاطفة(٤).

الأثر البلاغي والتداولي للاستدراك:

إن الاستدراك الذي يُرفع به ما يُتوهم ثبوته هو استدراكٌ له أثر بلاغي في العمل الأدبي؛ حيث إن كلمة "تداول" توحي(٥) بتبادل الأدوار بين المتكلم والمتلقي، فمرة يكون المتكلم ملتقيا والعكس، واستمرار التداول للحوار بالجمل اللفظية أو غير اللفظية من

---

(١) لسان العرب مادة (د ر ك).

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: للإمام جمال الدين بن هشام، تحقيق: أ.د/ صلاح عبد العزيز علي السيد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(٣) سورة البقرة، جزء من الآية (٥٧).

(٤) مذكرات في أدوات الربط والوصل في اللغة العربية: الدكتور عبد الله جفال الحديد، الجامعة العربية المفتوحة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١/ص١٢.

(٥) ينظر بحث: التداولية: المصطلح وقضايا المنهج، والتداولية العربية، حازم القرطاجني أنموذجا: دكتورة نادية لطفي ناصر، مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية، مجلة علمية محكمة، (ISSN:٢٥٣٦-٩٥٥٥). ص٥٠.

إشارات وإيحاءات وإيقاعات يوحي بالتواصل والفهم المستمر، ومن ثَمَّ استمرار الفائدة لمعلومةٍ ما، لها صدقها ووضوحها لدى المتلقي. لذا نادى الإمام عبد القاهر بمصطلح النظم الذي يدور حول توخي معاني الإعراب حيث قال(١): "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمتْ لك فلا تُخِل بشيء منها"، تلك النظرية هي التي لفتت الانتباه إلى نحو النص بمعنى منطقه اللغوي الداخلي الذي من دونه لا يمكن للخطاب أن يؤدي وظائفه الحجاجية الإقناعية(٢)؛ حيث أرجع الإمام عبد القاهر الجرجاني الأثر الانفعالي والجمالي الذي يثيره النص في نفس المتلقي إلى توخي معاني النحو، وذلك الأثر يتفجر في نفس المبدع أولا؛ ليفيض على الناس نظما، فيؤدي الوظيفة التأثيرية الإقناعية التداولية له(٣).

وهذا ما يفعله الاستدراك إذ قد يخرج من معناه؛ ليُستعمل في دحض حجة بين المتكلم والمتلقي في الحوار واستبدالها، ويمكن بذلك تسميته بالاستدراك الإقناعي، أو يفسر غموضا، أو يضيف شرطا جديدا يرفع أو يحط من المعنى كما فعل الرافعي في رسالته، على سبيل تسميته بالاستدراك التفسيري مثلا، أي قد يكون الاستدراك جزءًا

---

(١) دلائل الإعجاز: للإمام عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة مدني، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م. ص٨١.

(٢) ينظر: بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب: للدكتور حسن المودن، مكتبة لسان العرب، دار كنوز للمعرفة، عمان الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م. فحوى مضمون ص٢١٥.

(٣) ينظر بحث: الأبعاد الحجاجية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: أ.محمد يزيد سليم، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد السادس، جوان، ٢٠١٨، ص٢٦١.

أصيلا من البنية الإقناعية المستخدمة في استمرار التواصل بين المتكلم والمتلقي كما سيعرض في الفصل الثاني من البحث بمشيئة الله تعالى.

نبذة عن الرافعي، وأدبه[1]:

هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي: عالم بالأدب، وشاعر، ويعد من كبار الكتاب، أصله من طرابلس الشام، ومولده في مصر ببهتيم (بمنزل والد أمه) عام ١٢٩٨ هـ- ١٨٨١ م، ووفاته في طنطا عام ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧م. وأصيب بصمم فكان يُكتب له ما يراد مخاطبته به.

شعره نقي الديباجة في أكثره، ونثره من الطراز الأول، فهو عند أكثر الناس أديب ليس مثله في العربية، وكاتب من الطراز الأول بين الكتاب، وصاحب القلم الذي يكتب عن إعجاز القرآن فيعجز، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن للمؤمن، وحديث قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب..!

له ديوان شعر ثلاثة أجزاء، وكتاب تاريخ آداب العرب، ووحي القلم، وحديث القمر، والمعركة في الرد على الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي، وغيرها من الكتب.

وما كان له ليبلغ مبلغه الذي بلغ لولا حياته الهادئة مع زوجه، التي كان لها الفضل الكبير في نجاحه، إلى أن زاره الهوى والغرام الذي احتال على الخلاص منه، فما أجْدَتْه الحيلة إلا همًّا على هَمّ؛ لأن دينه وأخلاقه وإخلاصه لزوجه أقوى من حبه، فأفضي لها بما يشعر به حتى لا يرى على نفسه ملامة.

---

(١) ينظر الأعلام: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، مايو ٢٠٠٢م، ج٧/ص٢٣٥ ،٢٣٦. وينظر حياة الرافعي لمحمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي مصر، الطبعة الثالثة، س١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ص٦٢ ، ٦٣.

وأنشأ هذا الحب سلسة من الطرائف التي أتم بها نقص العربية في فلسفة الحب والجمال، وهي رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وكتاب أوراق الورد الذي يحوي الرسالة محل الدراسة، هذه الرسائل التي تحمل حبه، ووقصه وفائه وتضحيته في آن واحد.

نص الرسالة محل الدراسة[1]:

القمر:

«وكانت تأنس بضوء القمر، ويعجبها نوره على الحديقة خاصة، فسألته أن يناجي هذا «الجميل» في رسالة، فقال: حبًّا وكرامة «للقمر» ... وكتب».

إني لأراك أيها القمر منذ علقت معاني ما أرى، ولكني لم أعرف أنك أنت كما أنت إلا بعد أن وضع الحب فيها بينك وبين قلبي وجه من أهواها، كما يوضع التفسير إلى جانب كلمة دقيقة ...

عندئذ وصلتك قرابة الجمال بوجهها فاتصل بك شعوري؛ وبتّ على بعدك في أفلاك السماء تسبح أيضًا في دائرة قلبي، واستويت متسقًا كأن عملك لي أن تتمم فن جمالها بإظهارها أجمل منك، وأمسيت عندي ولك مثلها شكل السر المبهم المحيط بالنفس المعشوقة: يدخل كل جمال في تفسيره، ولا يكمل تفسيره أبدًا!

ومن شبهك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم والدم فيها، فتكاد أشعتك تقطف منها القبلة، ويكاد جوك يساقط من نواحيه تنهدات خافتة، وتكاد تكون مثلها يا قمر مخلوقًا من الزهر والندى وأنفاس الفجر!

•••

أما قبل حبها فكنت أراك أيها القمر بنظرات لا تحمل أفكارًا.

---

(١) أوراق الورد رسائلها ورسائله، تأليف: مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة هنداوي، عام ٢٠١٢م. ص٥١.

كنت جميلًا، ولكن جمال ورق الزهر الأبيض، وكنت في رقعتك المضيئة تشبه النهار مطويًّا بعضه على بعض حتى يرجع في قدر المنديل، وكنت ساطعًا في هذ الزرقاء ولكن سطوع المصباح الكهربائي على منارة قائمة في ماء البحر، وكنت زينة السماء ولكن كما تناط مرآة صغيرة من البلور إلى حائط فتشبه من صفائها موجة ضوء أمسكت ووضعت في إطار معلق!

وكنت يا قمر ... كنت ملء الوجود، ولكنك ضائع من فكري!

•••

وأما بعد حبها فأمسيت أراك أيها القمر ولست إلا طابع الله على أسرار الليل في صورة وجه فاتن، كما أن كل وجه معشوق هو طابع الله على أسرار القلب الذي يحبه.

فأنت جميلٌ جمال الجسم البض العاري، تكاد تشبه صدر الحبيبة كشفت أعلاه فظهر في بريق الفضة المجلوة.

وأنت فاتن تحاكي في ضوئك وجهها لولا أنك بلا تعبير.

وأنت ساطع بين النجوم، ولو تجسمت صورةٌ من أجمل ضحكاتِ ثغر معشوق لكانت، ولو تجسمت القبلات المنتثرة حول هذا الثغر لكانتها!

وأنت زينة السماء، ولكن السماء منك كمرآة سحرية اطلعت فيها حورية من حور الجنة فأمسكت خيال وجهها في لجة من النور، فأنت خيالُ وجهها!

وأنت يا قمر ... أنت ملء الوجود، ولكنك أيضًا ملء فن الحب ...!

•••

أتذكر أيها القمر إذ طلعت لنا في تلك الحديقة ... وتفيأتَ بنورك عليها فغمرت أرضها وسماءها بروح الخلد، حتى وقع في وهمنا أنك وصلتها من سحر أشعتك بطرف من أطراف الجنة فهي ناحية منها؟

أتذكر وقد رأيتك ثمة قريبًا من الحبيبة تصب عليها النور حتى خيل إليَّ أنها إحدى الحور العين متكئة في جنتها على رفرف خضر وقد وقف لخدمتها قمر؟

أتذكر وقد لمستَ فكري بضوئك لمسة نور فأظهرتها لي كأنها في جمالها الطاهر شكل ديني وُضع ليكون مثالًا لعبادة القلب الإنساني؟

أتذكر إذ نزلت علينا بآيات سحرك فخيلت لي أن العالم قد تحول فيها إلى صورة جميلة مرئية أمست لي وحدي، فملكت العالم كله في ساعة من حيثُ لم أملك إلا الحب؟

أتذكر ساعةَ جئتها بها مِن فوق الزمن، وكان فيها للحديقة جو من زهر، وجو من قمر، وجو من امرأة أجمل من القمر والزهر؟

•••

أترى يا قلبي كأن في الوجود الذي حولنا أنوثة وذكورة فهو بالقمر تحت الليل يعبر عن نفسه تعبيرًا نسائيًّا في منتهى الرقة؛ لأنه قوي شديد، وفي غايته التفتر؛ لأنه مشوب متضرم، وفي كمال الدلال؛ لأنه في كمال الإغراء، وفي أقصى الحياء؛ لأنه يبعث بهذا الحياء فيما حوله أقصى الجرأة؟

تعبيرُ امرأة معشوقة جميلة ترف بأندائها وليس فيها إلا صفات، وبالشمس على النهار يعبّرُ الوجود عن نفسه تعبير رجل مقدام ليس فيه غيرُ القوة والحركة والاندفاع.

تعبيرَ رجل جبار يحمل عزائمه التي يحترق بها، وليس فيه إلا صفات النار!

أترى يا قلبي كأن مدينة الحياة في النهار بصراعها وهمومها تحتاج إلى قفر طبيعيٍّ يفر إليه أهلُ القلوب الرقيقة بضع ساعات، فلذلك يخلق لهم القمر صحراء واسعة من الضوء يجدون فيها بعد تلك المادية الجياشة المصطخبة روحانية الكون، وروح العزلة، وسكينة الضمير، ويبدو فيها كل ما يقع عليه النور كأنه حي ساكن يفكر.

أترى يا قلبي كأن ضوء القمر صنع صنعة بخصائصها؛ ليبعث في القلوب معاني القلوب الروحية من الفكر والحب، كما صنع نور الشمس؛ ليبعث في الأجسام قواها، ومعانيها المادية من الحياة والدم؟ ...

أترى يا قلبي كأن هذا القمر إنما يلقي النور على الحلم الروحاني اللذيذ الغامض الذي يحلم به كل عاشق من أول درس في الحب، ساعة ترسل الحبيبة إلى قلبه رسالة عنها، ولا يحلم بمثله في غير العشاق إلا أعظم الفلاسفة، وفي آخر دروس فلسفته، وبعد أن تكون الليالي الطويلة قد أطلعت في سماء عمره قمرَ الشيخوخة من شعره الأبيض؟

أترى يا قلبي كأن هذا القمر في الحب (تلسكوب) يكبر نوره العواطف حين تبث في ضوئه، فلا يطلع على حبيبين أبدًا إلا كبر أحدهما في عين الآخر؟

أترى يا قلبي أنه ليس في الحب إلا عواطف مكبرة يثيرها دائمًا وجه الحبيب، فلا بد أن يكون دائمًا وجه الحبيب طالعة فيه روح القمر؟

أترى يا قلبي ...؟ آه ... أترى؟.

•••

مدخل إلى رسالة "القمر":

يعد كتاب أوراق الورد تكملة لكتابي الرافعي: رسائل الأحزان والسحاب الأحمر، فجملة آرائه في الفلسفة والجمال في هذه الكتب الثلاثة.

ورسائل أوراق الورد تطارحها شاعر فيلسوف روحاني وشاعرة فيلسوفة روحانية، كلاهما يحب الآخر باعتبار عقلي؛ أي تسمو بالحب فوق المادة، ولا يريدان إلا وحي النفس الجميلة للنفس الجميلة، فيرسل كل منهما لصاحبه ما عنده، حتى اعتبرت من الطراز الأول لفنون الترسل في تاريخ الأدب العربي[١].

وسبب تسمية هذه الرسائل بأوراق الورد؛ إذ إن هذه الشاعرة الجميلة كانت معها وردة ذات يوم، ولا يدري أيهما تستنشي الأخرى، ثم تأملتها شيئا، ثم نحتْ إليه بصرها وقالت: ما أرى هذا الحب إلا كورق الورد في حياته ورقته وعطره وجماله، ثم

---

(١) ينظر أوراق الورد ص١١، ١٢، ٢١.

دنتْ فناطتْ وردتها في عروة صاحبها، فقال لها: وضعتِها رقيقة نادية في صدري، ولكن على معان في القلب كأشواكها، فاستضحكت وقالت: فإذا كتبت يوما معاني الأشواك فسمها أوراق الورد، وكذلك سماها[١]!

***

(١) ينظر أوراق الورد ص٢١، ٢٢.

المبحث الأول

الأساليب الإقناعية المستخدمة في رسالة "القمر".

لاشك أن للإقناع عناصر يرتكز عليها كأعمدة البناء حتى يصبح متكاملا ووافيا ومؤثرا في المتلقي، هذه الأعمدة يستطيع المخاطب من خلالها فهم ما يريده النص جيدا، أو تقريب المعنى المراد إلى ذهنه، ومنه إلى تقييمه، والحكم عليه، ونقده، والاستفادة منه، وتتمثل هذه القوى والركائز الإقناعية في رسالة "القمر" لدى الرافعي، في:

أولا: أسلوب التصوير الحسي

إن الرافعي أديب متمكن، لا يستطيع أحد متابعته إلا من أوتى حظا وافرا من العلم، وإلا سيشعر أنه أمام أديب متكلف لا يصدر عن طبع، أو غامض معمّى لا تخلص إليه النفس؛ نظرا لفقر علمه، ولكنه أديب يحمل الفكرة أياما في ذهنه، ثم يعاودها من خلالها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل؛ حتى تكتمل الفكرة في ذهنه، بعد اعتصار المعاني وتوليد الأفكار ومزج الخواطر؛ من خلال مجازات مركبة، واستعارات بعيدة، وكنايات خفية، فيعطيها الصورة ويكسوها اللفظ.

ومِن ثَم يصبح بيان الرافعي أشبه بعملية تقطير لألوان من الزهور والرياحين، وهذا ما أطلقه عليه الدكتور أحمد هيكل: طريقة البيان المقطر؛ حيث يستخلص عطرا مركزا مركبا، فيه جمال لكن ليس فيه بساطة، وفيه متعة ولكن ليس فيه جلاء، وفيه فن ولكنه فن المهارة التي تسيطر على الفطرة[١].

---

(١) ينظر: تصدير الأستاذ محمد سعيد العريان بوحي القلم: لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج١/ص٩. ووحي الرسالة: لأحمد حسن الزيات، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، الطبعة السابعة، ١٩٦٢م، ١/٤٤٠. وتطور الأدب الحديث في مصر: للدكتور أحمد عبد المقصود هيكل، دار المعارف، الطبعة السادسة، ١٩٩٤م، ص٣٨٧.

وهذه الرسالة محل الدراسة في كتابه أوراق الورد تعد فيضا هائلا من التصوير الحسي لدى أدب الرافعي، والذي من خلاله استطاع أن يجعل الباحث أو القارئ يغوص في بحر البيان، يتمعن لينهل، ويتأمل ليفهم ما يريده الكاتب، ورغم أن التصوير الحسي يستخدمه الأديب في تقريب المعنى إلى الذهن عن طريق الإدراك بالحواس إلا أن الرافعي لم يستخدمه في التقريب فحسب، بل للشعور بالمتعة ودوامها، فكلما تنتهي من استخلاص المعنى من الفكرة تجد نفسك عالقا فيما وراءها.

فكان يلجأ إلى ما يسمى بشعرية اللغة في كتاباته النثرية؛ وذلك عندما يريد أن يصف شعورا غامضا لا تستطيع مفردات اللغة التعبير عنه من وجهة نظره، أو لا تساعد في رسمه كما يحسه هو، أو أن المفردات المألوفة قد تضيع قيمته الفنية المرجوة، وتهدر الذائقة والخيال لدى الأديب والمتلقي في آن واحد(١).

•••

ورسالة "القمر" التي بين أيدينا من عناصر هذا الكتاب الخصب كتاب أوراق الورد، والذي يلاحظ فيها استخدام الرافعي لأكثر من أداة إقناعية تدعم كلامه وتوضح فكرَهُ. كما أنها تعتمد اعتمادا كليا على الصور البيانية الخلابة، وسأعرض جزءًا منها في هذا المقام؛ لانتشارها بالبحث كله.

يقول الرافعي وهو يناجي القمر الذي تأنس به محبوبته:

(ومن شَبَّهكِ بوجْهِهَا أزهرَ الضَوْءَ فيكَ، ما يزهِرُ اللحمُ والدمُ فيها، فتكادُ أشعتُكَ تَقْطِفُ منها القُبْلَةَ، ويكادُ جَوُّكَ يُساقِطُ مِن نواحيهِ تَنَهُّدَاتٍ خافتَةً، وتكادُ تكونُ مثلَها يا قمر مخلوقًا من الزَّهْرِ والنَّدَى وأنفاسِ الفَجْرِ!.)

---

(١) ينظر: أساليب التشويق في المقال الأدبي عند الرافعي: للدكتور عبد الحميد محمد بدران، أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالمنصورة، حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثاني والثلاثون، إصدار ٢٠١٧م، ص١١٨٠.

في مخاطبة الرافعي للقمر تشخيص ظاهر إذ جعله إنسانًا يسمعه ويحاوره على سبيل الاستعارة المكنية، التي لم يقف الرافعي عليها بل شبه القمر بوجه محبوبته تشبيها مقلوبا في قوله: (ومن شبهك بوجهها)؛ ليعطي لوجه محبوبته الغاية في الجمال والحسن والصفاء، وجعل تشبيهه تشبيها تمثيليا؛ فشبه سطوع ضوء القمر بعد استمداده الضوء منها –أي من محبوبته– فأصبح أكثر إضاءة وإنارة، بسطوعها عندما يُزهِر اللحمُ والدمُ وجهَها وهيئتها، وكأنه شبه سَرَيان نورها فيه بسريان الدم في الوريد، واللحم في الجسد، فأصبح نورها وكأنه جزء منه؛ دليلا على حبها الشديد للقمر، واستئناسها العميق به.

لذلك لم يقل في الجملة التي تليها: يكاد ضوؤكَ يَقطفُ، بل قال: (فتكاد أشعتُكَ تَقطفُ منها القُبْلة)؛ لأن القمر عندما جاور هذه المحبوبة أصبح له أشعة كأشعتها الساقطة عليه والمؤثرة فيه؛ إذ جعلها أصلًا لهذا الضوء، وهو تابع لها.

ثم شبه الأشعة بالإنسان الذي يقطف الثمرة، وشبه في الوقت نفسه هذه القُبْلة بالثمرة التي يريد الإنسان الحصول عليها والتلذذ بها على سبيل الاستعارة المكنية، والجملة مبنية على المبالغة في انعكاس الضوء من المحبوبة إلى القمر، وكأنه هو الذي يذهب لأخذه، مما يدلك على بشاشة وسطوع هذا الوجه الملهم، وجه محبوبته. واللفظ (تكاد) خفف من تلك المبالغة وأجازها.

وكما أوضحت سابقا أن من سمات الرافعي تعانق الصور البلاغية في العبارة الواحدة، بل في الجملة الواحدة، لذا أتى بالاستعارة المكنية فقال: (ويكاد جَوُّكَ يُساقِط من نواحيهِ تنهُّداتٍ خافتة) فتجده جعل الجو شخصًا يساقط الأشياء والتنهدات من حوله، والتنهدات لا تسقط، والجو لا يقوى على إسقاط شيء!

ولفظ (تُساقِط) اقتباس من قوله تعالى: "وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا "(١)، فلم يقل تتساقط، بل آثر صيغة (تفاعل) التي من معانيها(٢): المبالغة، وحصول الفعل تدريجيا، مما يفيد المبالغة في الإسقاط، وحدوثه بتزايد تدريجي؛ لذا جعلها (خافتة) كناية عن ألمه وحزنه لفراق هذا الوجه الذي كان حلما يتمنى امتلاكه ودوام النظر إليه، ودلالة أيضا على خفاء هذا الحب ومحاولة كبته داخل قلبه.

ثم بالغ الرافعي في ادعائه أن محبوبته مخلوقة من الزهر والندى وأنفاس الفجر في قوله: (ويكاد تكون مثلها يا قمر مخلوقا من ....) فظهر تعبيره عن جمال خلقها وكأنه من حسن التقسيم؛ حيث جعلها وجها مطابقا للحديقة التي يتقابل معها فيها؛ ليعزز هذا اللقاء، ويؤكد على علوقه في ذاكرته، على سبيل التشبيه التمثيلي.

ومما سبق تستشعر كثرة التصوير الحسي في العبارة وتعانقه، إذ لا يخلو سطر واحد من الرسالة بأكملها كما سنرى؛ ليصور لوحة فنية متكاملة.

***

ثانيا: الأسلوب الفلسفي الجمالي

إن الصفة الأساسية التي يمتاز بها الأديب أو الشاعر هي في جوهرها الصفة التي يمتاز بها الفيلسوف؛ حيث إن الدهشة التي تبعث الفلسفة هي ذاتها التي تبعث الفن والأدب والشعر، وعلى الرغم من أن الرافعي اشتهر بأسلوبه الفلسفي إلا أنه أبدع حينما أدخلها في الحب، والحب إحساس ولكنه فن يمكن تعلمه ودراسته عبر معرفة قواعده وأصوله التي يجعلها في الاهتمام والمسؤولية والاحترام والمعرفة. والحب عندما يدخل مجال التطبيقات الأدبية ينتقل إلى منطقة أخرى غير مناطق

---

(١) سورة مريم، آية ٢٥.

(٢) ينظر: شذا العرف في فن الصرف: تأليف الشيخ أحمد الحملاوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، دمشق سوريا، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص٤٧.

الغرائزية الملحة؛ إذ ينتقل إلى حبٍّ للجمال، ولا يمكن قصره على الحب البلاستيكي للأجساد، الحب الفاني في حد ذاته. لذا قال الرافعي عن حبه في مقدمة أوراق الورد: إنه حب باعتبار عقلي، حب يسمو فوق المادة. ولعل التكوين الأخلاقي للرافعي جعله يميل إلى هذا الأسلوب الفلسفي في الحب؛ حيث إن أباه الشيخ عبد الرازق كان قاضيًا لرأس القضاء في عدد من الأقاليم المصرية، له صلابة في الدين، وشدة في الحق، لذا كره الرافعي الوظيفة والمحسوبية؛ لأن من أهم مظاهر الفلسفة: التعاطي مع العلل، والاهتمام بالاحتياجات، والاعتماد على الأفكار الحقيقية، والحرية[١]. لذا قال عنه محمود شاكر[٢]: إن الرافعي خرج من هذه الفتن التي لفّت كثرة الشعراء والأدباء؛ حيث التقمتهم فمضغتهم فطحنتهم ثم لفظتهم، لذا عرف حقيقة أدبه، وما ينبغي له، وما يجب عليه، ويرى أن يكون كبعض مشاهير الكتاب والشعراء ممن يطيح بالقول من أعلى رأسه إلى أسفل القرطاس، وللقارئ من قنابله من بعد ذلك ما يتشظى في وجهه ويتطاير، ومِن ثَم كان الرافعي من الكتاب والأدباء والشعراء الذين تتخذ حياتهم ميزانا لأعمالهم وآثارهم؛ فهو يرى[٣]-أي الرافعي- أنه لا يخلق الملهم أبدا إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله في قلبه الرقيق مواضع مهيئة للاحتراق، تنفذ إليها الأشعة الروحانية وتتساقط فيها المعاني -دلالة على اجتماع الفلسفة والحب

---

(١) ينظر: في الأدب الفلسفي: الدكتور محمد شفيق شيّا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، لبنان، ص١٠٦. وينظر: من أول نظرة في الجنس والحب والزواج: لأنيس منصور، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢٠- ٢٢. وينظر حياة الرافعي لمحمد سعيد العريان ص٢٥- ٢٦. وينظر الفلاسفة والحب -الحب من سقراط إلى جان بول: ترجمة دينا مندور، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص٢٥. وينظر الفلسفة ببساطة: برندان ولسون، ترجمة آصف ناصر، دار الساقي، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، العناوين الرئيسة للكتاب.

(٢) حياة الرافعي مجمد سيد العريان ص ٧.

(٣) وحي القلم للرافعي ١٥/١.

في خلق المعاني- ثم يلقي فيه السر الذي يلقى في الشجرة؛ لإخراج ثمارها بعمل طبيعي، يرى سهلا كل السهل حيث يتم، لكنه صعب أي صعب حين يبدأ.

وقد اتخذ الرافعي من هذا الأسلوب سبيلا لعرض فكرته، ووصلها بالواقع، وناسب هذا الأسلوب الفلسفي ظهور الكثير من الاستعارات التي تجسد وتشخص ما يريد قوله، مع الاحتفاظ بالغموض الذي يحفظ له سرية مشاعره.

فيقول:

(أترى يا قلبي كأن مدينةَ الحياةِ في النهارِ بصراعِها وهمومِها تحتاجُ إلى قَفْرٍ طبيعيٍّ يَفِرُّ إليهِ أهلُ القلوبِ الرقيقةِ بِضْعَ ساعاتٍ، فلذلك يَخلُقُ لهم القمرُ صحراءَ واسعةً مِن الضوءِ، يَجدون فيها بَعدَ تلك المادِيَّةِ الجَيَّاشَةِ المُصطَخَبةِ روحانيةَ الكونِ، وروحَ العزلةِ، وسكينةَ الضميرِ، ويبدو فيها كلُ ما يقعُ عليه النورُ كأنَّهُ حَيٌّ ساكنٌ يُفكِر.)

توضح هذه العبارة الصراع النفسي الذي يعانيه الرافعي، وبدلا من أن يتحدث عن نفسه التفت من التكلم إلى الخطاب؛ أي لمخاطبة إياها، في قوله: (أترى يا قلبي؟)، وخص القلب على سبيل المجاز المرسل علاقته الجزئية؛ لأنه المكان الذي يحمل المشاعر والحب. والاستفهام مجازي؛ للتقرير، دلالة على كبت أمانيه وتخبئتها، وإرادة منه في تقرير قلبه بما يريده، وقد يكون الاستفهام للزجر؛ لذا ناداه منادة البعيد بالأداة (يا) رغم شدة قربه له؛ لأنه خالفه، وأذهب سكينته، وأتى له بالوجع والحزن عندما أحب ما ليس له. وقد يحمل الاستفهام في (أترى) على معنى: (أَخْبِرْني)، وعليه فهو يبحث عن رد سريع وصادق يهدئ من نفسه المتعبة.

ثم شبه كل هذه الحياة التي نعيشها بالمدينة الصغيرة؛ دلالة على فنائها، وتَذْكِرةً لنا على ترك ملذاتها، فهي لا تغني ولا تسمن من جوع. وقد لا يكمن المشبه به في الحياة وضآلتها، وإنما يكمن في مصارعة الإنسان ومكابدته لمتاعبها، وعليه يُحمل التشبيه في (مدينة الحياة) على الاستعارة المكنية كمثل: يد الشمال، فيكون قد شبه

الحياة بإنسان؛ ليعكس طبيعة الصراع في الحياة، ورغبة الإنسان في التخلص من همومها؛ مما يدفعه إلى اللجوء إلى الانعزال عن بني البشر.

ثم أراد أن يريك لها مشهدين: مشهد في النهار، ومشهد في الليل على سبيل المفارقة، والمعلوم أن النهار يكون للسعي، والليل للراحة كما قال الله –تعالى– في كتابه العزيز: "وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا"(١)؛ لذا جعل للحياة في النهار صراعا وهموما على سبيل الاستعارة المكنية؛ حيث جعلها إنسانًا يصارع ويحزن. وبسبب كل هذه الصراعات والهموم فهي لا تستطيع استكمال مسيرتها إلا إذا وجدتْ قفرا طبيعيا يفر إليه أهل القلوب الرقيقة بضع ساعات .! وناسبتْ كلمة (قفر) الحالة النفسية للرافعي، فلم يقل تحتاج لمكان أو موضع أو مأمن بل قال: قفر، أي صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، ولكنها بالدنيا وما فيها.

وكلمة (يفِرُّ) وما بها من السرعة في الابتعاد عن الواقع الأليم مناسبة لتلك الحالة أيضا.

واكتفى بذكر (بضع ساعات)؛ لحث المرء على استكمال حياته والرضا بما فيها؛ لأن طبيعة الحياة هكذا، مليئة بالصراعات والابتلاءات، امتثالا لقول المولى عز وجل: "لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ"(٢)، ولكنه يذكرك بضرورة الرجوع إلى الله، إذ لا مهرب منها –أي الحياة– إلا إليه سبحانه وتعالى.

كما أن لفظ (تحتاج) أي: تفتقر، قوَّى المعنى المراد؛ لأن الإنسان عندما يحتاج، يكون احتياجه لمن يميل إليه ويعطف عليه، وهل القَفْر سيسد حاجته؟! لذا يذكرنا الرافعي بأننا منها جئنا، وإليها نعود، فهي كلها زائلة، بقصورها ونعيمها، ولم يتبق لنا سوى هذا التراب الموجود في هذا القفر البعيد.

---

(١) سورة النبأ، الآية (١٠، ١١).

(٢) سورة البلد، آية (٤).

ثم ينتقل إلى مشهد الليل، ويذكر فيه تأثير القمر على ظلامه، والليل في حد ذاته مخلوق للراحة، لكنه سلط الضوء على نور القمر الذي يجعل من الراحة سكينة وأمانا وملاذا؛ حيث جعل القمر هو من يخلق لهم الضوء رغم أنه يستمد نوره من الشمس، والخالق هو الله الملك -عز وجل- على سبيل المجاز العقلي علاقته السببية، فكما يخرج الإنسان بنور الإيمان من الظلمات إلى النور، يخرجهم القمر من المادية المصطخبة إلى:

١- روحانية الكون

٢- وروح العزلة

٣- وسكينة الضمير .... كناية عن حتمية الارتقاء بالروح والتأمل في جمال الكون الرباني، الذي يعطي للنفس طمأنينتها.

وانتقاله من كلمة (قفر) في مشهد النهار إلى كلمة (صحراء واسعة) في مشهد الليل أكد على قيمة ذلك القمر في بعث روح السكينة، ودور نوره في تغيير الكون؛ لذا شبه في قوله: (ويبدو فيها كلُ ما يقعُ عليه النورُ كأنه حيٌّ ساكنٌ يفكر) كل شيء مادي يقع عليه نور القمر بالإنسان الحي الذي يعي وينبض قلبه بالحياة، لكنه ساكن سكونه هذا من أجل التفكر في حال دنياه.

وترى بلاغة الإضافة في قوله: (مدينة الحياة، وأهل القلوب الرقيقة، وروحانية الكون، وروح العزلة، وسكينة الضمير) تجدها قد اختزلتْ لك الكثير من الكلمات والجمل، كما أنه لم يقل: أصحاب القلوب، بل عبَّر بكلمة (أهل): مِن أَهَلَّ الشهر أي ظهر هلاله[١]، فقلوبهم رقيقة نقية تقية منذ أن ولدتْ في هذه الحياة الحادة الطبع القاسية، ومع ذلك لم تغير فيهم شيئا..!

---

(١) لسان العرب مادة (أ هـ ل).

فتجد نفسك بعد هذا العرض وقد وقفت على مقطوعة مصبوغة بالنزعة الفلسفية العميقة؛ إذ جعلك تغوص في المعاني والأخيلة، بل جعلك تستقطع نفسك عن العالم الخارجي وتصل لهذا المكان الذي يصفه، والذي حوَّله القمر من قفر إلى صحراء واسعة منيرة، وهذا ما يفعله وجه المحب في أعماق محبوبه؛ فيبدد وحشة قلبه، ويبدل حياته من حال إلى حال، ويلون أيامه بألوان زاهية، فتجعله قادرا على تحمل الحياة بشتى صراعاتها، ورغم أن لكل شخص عالَمًا واحدًا وصراعًا واحدًا وهو صراع النفس مع ملذات الحياة، ولكنه جلب له الكثير من الهموم والمتاعب، لذا أفرد كلمة صراع، وجمع كلمة هم، في قوله: كأن مدينة الحياة بصراعها وهمومها.

***

ثالثا: أسلوب التشويق التعبيري

للتشويق التعبيري لدى الرافعي مزية؛ إذ هو حلبته المحببة؛ ورثها من أستاذه المنفلوطي، ثم عاد إليها فكساها لحما ودما، فأنشاها خلقا آخر بموهبته الغنية بالخيال، ومخزونه التراثي الذي أينما يوجهه يأتِ بخير(١).

فتراه قد استخدم الكثير من الأخيلة من تشبيهات واستعارات أثناء وصفه للقمر قبل حال حبه، وبعدما دخل الحب قلبه، وكيف كان للاستدراك فيها عامل كبير في الارتقاء بإقناعه في هذه الرسالة، وهذا ما أتطرق له بالمبحث الثاني إن شاء الله.

وهنا سأعرض كيف استطاع أن يوظف المحسنات البديعية: من تقسيم ومبالغة واقتباس لتتناغم مع الصور البلاغية البيانية؛ لتصبح قوة إقناعية عظمى في الرسالة، ووسيلة جذب وتشويق يستطيع من خلالها توطيد معناه في ذهن المتلقي.

---

(١) ينظر: بحث أساليب التشويق في المقال الأدبي عند الرافعي ص١١٦١- ١١٦٢.

- يقول في التقسيم:

أترى يا قلبي كأنَّ في الوجودِ الذي حَوْلَنا أنوثةً وذكورةً، فهو بالقمرِ تحتَ الليلِ يُعبِرُّ عن نفسِهِ تعبيرًا نسائيًّا في منتهى الرِّقةِ؛ لأنه قويٌّ شديدٌ، وفي غايتِهِ التَّفَتُّر؛ لأنه مشوبٌ مُتَضَرِمٌ، وفي كمالِ الدَّلالِ؛ لأنه في كمالِ الإغراءِ، وفي أقصى الحياءِ؛ لأنه يبعثُ بهذا الحياءِ فيما حوله أقصى الجرأة؟ تعبيرُ امرأةٍ معشوقةٍ جميلةٍ تَرِفَ بأندائِها وليس فيها إلا صفاتٌ، وبالشمسِ على النهارِ يُعبّرُ الوجودُ عن نفسِهِ تعبيرَ رجلٍ مقدامٍ ليس فيه غيرُ القوةِ والحركةِ والاندفاعِ. تعبيرَ رجلٍ جبارٍ يحملُ عزائمَهِ التي يحترقُ بها، وليس فيه إلا صفاتُ النارِ!)

والوجود هو: كل ما هو موجود، أو يمكن أن يوجد، وهو ليس به أي صفة من صفات البشرية التي أعطاها الرافعي إياه من ذكورة وأنوثة على سبيل التشبيه المتعدد، فأعطى للأنثى صفات، وللذكورة صفات أخرى تعاكسها؛ فشبه الوجود بالأنثى وأعطاها صفات القمر، والذي عزز هذا التشبيه كلمة (يعبر)، والتعبير عن النفس لا يحدث من الوجود حقيقة، فتراه قد عانق بين التشبيه والاستعارة.

وأعطى لهذه الأنثى أربع صفات، وأضاف لكل منها سببا في ذلك؛ حيث قابل بين الرقة والقوة، والتفتر -مِن تفتَّر الماء، أي سكن حره، فأصبح بين الحار والبارد- والاحتراق، وكمال الدلال وكمال الإغراء، وأقصى الحياء وأقصى الجرأة؛ ليريك أن المرأة هي الوطن الذي يهدأ ويهنأ الرجل في كنفه، فهي تمتلك صفة الكمال التي لم يتمكن منها الرجل.

وبالجانب الآخر تجده قد أعطى الوجود الذكوري صفات الشمس، وهي القوة والحركة والاندفاع، وختم تقسيمه بقوله عن تعبير الوجود:

(تعبير امرأةٍ معشوقةٍ جميلةٍ تَرِفَ بأندائها، وليس فيها إلا صفاتٌ)، و(تعبيرَ رجلٍ جبارٍ يحملُ عزائمِهِ التي يحترقُ بها، وليس فيه إلا صفاتُ النارِ!)، فشبه الوجود بالأنثى التي يتنعم بخيرها وفضلها، وبالرجل تارة أخرى ذي الكرامة الذي يحمل

عزائمه، فهو رمز للشجاعة والحماية. والعزائم لا تُحمَل ولا تُحرَق، ولكنه جعل الشيء المعنوي كالحسي على سبيل الاستعارة المكنية؛ ليبين لك شدة المعاناة التي يعانيها الرجل في هذا الوجود لتحمل المسؤوليات.

وقصر على الرجل صفات النار كناية عن الحمية وعزة النفس، وحذف المنعوت في أسلوب القصر الخاص بالأنثى؛ لمعرفته، أو إشغال فكر القارئ فيه، والذي يمكن تقديره: أنها صفات الجمال أو الكمال على الحد الأدق.

فتجد أن الرافعي قد جعلك متأملا متشوقا لمعرفة نظرته حول الرجل والمرأة، والذي عبر عن فلسفته لهما بشكل تصاعدي؛ عندما قسم الوجود إلى أنوثة وذكورة وهي تقسيمات عامة، تعني الجنس الأنثوي أو الذكوري ككل، ثم أعطى لكل منهما صفات ارتقت بهما من الشكل الظاهري الكامن في الجمال، إلى جمال الفكر ورجاحة العقل وسمو الأخلاق؛ لذا استخدم كلمتي المرأة والرجل عندما تحدث عن تلك الصفات التي تكفل لكليهما السحر. ودليلٌ على أنه ليس كل ذكر رجلا، والعكس صحيح، قول المولى عز وجل: " ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ "[1]، ذلك الرجل الذي به صفات الشجاعة والحماية، بل صفات القوامة. فتجد أنك تذوَّقتَ مع الرافعي جميع ألوان الخيال التي صاغها ونسقها بنسق محكم متكامل.

- الاقتباس:

الاقتباس مأخوذ من الفعل اقتبس أي أخذ، وقد استعان به الرافعي؛ ليعلي من مدحه لمحبوبته، إذ هي في عينه ليست من البشر.

وفي سياق مخاطبته للقمر يقول:

---

(١) سورة النساء، جزء من آية (٣٤).

(أَتَذْكُرُ وقد رأيتُكَ ثَمَّةَ قريبًا مِن الحبيبةِ، تَصُبُّ عليها النورَ، حتى خُيِّلَ إليَّ أنَّها إحدَى الحورِ العَيْنِ، مُتَّكِئَةً في جَنَّتِها على رَفْرَفٍ خُضْرٍ، وقد وَقَفَ لخِدمَتِها قَمَرٌ؟).

ابتدأ الرافعي عبارته بأسلوب الاستفهام الصادر إلى القمر عن طريق الاستفهام التقريري أيضا في (أتذكر)، والقمر لا يتأتى له الذكرى، ولكنه كعادته شبهه بإنسان، وأراد منه الإقرار بما يحب وليس بما يقول على سبيل الاستعارة المكنية.

وقوله: (رأيتك ثَمَّةَ قريبًا من المحبوبةِ) تشبيه ضمني؛ إذ رؤيته لمحبوبته وهي واقفة تحت نور القمر كمثل نجمة أو جرم سماوي، تقف بجوار القمر وتنير بنوره.

ثم جعله يقوم بصب النور على محبوبته، والنور لا يصب، ولكنه شبه النور المعنوي بالسائل الذي يمسك باليد ويُصب؛ ليجعله قادرا متحكما في إعطاء المحبوبة الكثير من نوره.

ولم يكتف الرافعي بذلك بل شبه محبوبته بعدما صب القمر نوره عليها، تجلس وسط الحديقة الخضراء التي يتقابلا فيها، بالحور العين المتكئ على البسط الخضراء الزاهية، كناية عن الجنة، بجامع الجمال المكاني والزماني في كل، على سبيل التشبيه التمثيلي، وذلك اقتباس من قوله تعالى في وصف أهل الجنة: " مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ "(١).

ثم بالغ فقال: وقد وقف لخدمتها قمر؟! حيث شبه القمر الذي تقف تحته، وتستأنس بنوره، بالخادم الذي يقف لخدمة سيده، فلا يتركه ولا ينفك عنه، على سبيل التشبيه المقلوب.

ولأن محبوبته وشاعرته الجميلة متفردة لديه، تفرد بهذا الاقتباس القرآني؛ حتى لا يُلقَى ضوءٌ آخرٌ إلا عليها، وكما أنه برؤيتها تتحول دنياه جنة، جعلها جزءًا من الجنة التي يتمنى الفوز بها في الآخرة.

---

(١) سورة الرحمن، جزء من آية (٧٦).

***

رابعا: الأسلوب اللغوي الإقناعي:

تعد اللغة هي الوسيلة الأولى للتواصل في حياتنا اليومية، بها يكون التكوين الفعلي للجملة، ومِن ثَمَّ تختلف الأساليب اللغوية حسب الغرض المنوط الوصول إليه، لذلك فإن هذا الأسلوب على الأخص يعد اللبنات التي تتكون منها أعمدة الإقناع ووسائله التي تكلمت عنها من ذي قبل، وقد استطاع الرافعي استخدام العديد منها في رسالته، ومنها:

الإقناع بالخبر:

يتحدث مطلع هذه الرسالة عن شاعرته الجميلة التي تأنس بـ(محبوبها)، وتعيش سعيدة في كنفه، مستنيرة بنوره الذي يضيء الدنيا من حولها، حتى يلامس ظلام قلبها، فيبدده ويملأه نورا وحبا.

ألا وهو القمر....

ثم يصف لك كيف انعكس حبها للقمر على حبه هو للقمر ذاته، ذلك القمر الذي كان يراه بعين غير ذات العين التي أحبَّتْ وعشقتْ، ووثقتْ في حكمِ معشوقِها للأشياء، فتأمَّلتْ، ومن ثَمَّ تنعمتْ بطيات الخيال ورفرفتْ.!

ومن المعلوم عبر ما ذكر في الكتب والمراجع[١] أن الرافعي أحب الكاتبة مي زيادة وهام بها، ولكنه حبٌ صادقٌ خالٍ من الوقوع في الحرمات، فقد كان رجل دين، يعرف منه القدر الذي يمنعه من الوقوع في الخطأ، ولكنه عبر عن هذا الحب المولع بداخله في كتاباته، وهام قلمه في التعبير عنه.

---

(١) ذكرت بوصفها غير مصرح باسمها في كتاب حياة الرافعي ص٩٩-١٠٠.

يقول الرافعي:

"وكانتْ تَأْنَسُ بضَوْءِ القمرِ، ويُعجِبُهَا نورُهُ على الحديقةِ خاصة، فسَألتْهُ أن يُناجِي هذا الجميلَ في رسالةٍ، فقال: حُبًّا وكرامةً للقمرِ....وكَتَبَ."

يلاحظ الأسلوب الخبري الهادئ المستقر الذي تمثَّل في: (وكانت تأنس بضوء القمر ويعجبها نوره)؛ حيث اختار لهذا الأسلوب لفظ (تأنس) كناية عن الألفة؛ مما يناسب ذلك الثبات الذي يطرحه هذا الأسلوب؛ إذ إن الأنس واللطف ينافي الثورة والاضطراب وإحداث المشكلات، وذلك يبين مقدار المحبة بين الأنيس وأنيسته. وقد يُحمل اللفظ على الاستعارة؛ حيث شبه إعجابها بضوء القمر ودوام النظر إليه وإيلافها إياه بالاستئناس بالحبيب، ثم استعار الأنس للإعجاب، ثم اشتق من الأنس الفعل تأنس، على سبيل الاستعارة التبعية؛ حتى يبين للسامع مدى شاعريتها وعاطفتها الجياشة، فمن يمتلك قلبا من ذهب يمتلك العالم كله من حوله، فكم منا له أعين، وكم منا له قلم، وقلبه فارغ من الأخيلة الخلابة كمثل هذه، وهذا من براعة الرافعي التي صبها في مدح محبوبته. وحمل الأسلوب على الكناية أقرب.

وكان له أن يقول: وأنِسَتْ بضوء القمر وأعجَبَها نوره، إلا أنه عبر بالفعل المضارع (تأنس) و(يعجبها) على أن الحال ماض، والدليل قوله: (وكانت)؛ ليريك أن الأحداث وإن ذهبتْ إلا أنها عالقة في ذهنه وخياله وقلبه، تتجدد بتجدد حبه وذكره لتلك الحبيبة.

وقوله: (على الحديقة خاصة) تقييد بالجار والمجرور، يظهر الدقة في التصوير؛ حيث قيل[1]: (ثلاثة يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن)، والحديقة اجتمعت بها كل هذه المقومات، بل يوجد فيها ما يجلي

---

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني، مؤسسة قرطبة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج٢، ص٤٢٠.

الروح أيضا وهو المتمثل في رائحة الزهور، والجو المنعش الذي يشرح الصدر، فكأنها ترمز إلى الفسحة التي يشعر بها الرافعي أثناء مجاورته لتلك المحبوبة، بل ترمز لكل المشاعر التي تُنجِّح عملية المقابلة مع الحبيب، مع وجود ضوء القمر المتلألئ الذي جعل لهذا الأنس جوا شاعريا متكاملا.

وأكَّدَ استتارُ المسند إليه والتقدير: تأنس محبوبتي على الوازع الديني لديه؛ إذ يخفي اسمها لعدم المساس منها أو التشهير بها، وأيضا ليكون نظمه عاما، ما هو إلا تدفقٌ بلاغيٌّ من نفس مليئة بالبلاغة والتصوير.

ثم ساق أسلوبه الخبري في صورة حوارية بين الحبيب والحبيبة فقال:

"فسألَتْهُ أن يناجي هذا الجميل، فقال: حبا وكرامة للقمر..."

وقد تكون التاء تاء الفاعل (فسَأَلْتُهُ) على أن يكون الرافعي جرد من نفسه نفسا تحاور وتجيب.

وعبر عن طلبها بـ(المناجاة) التي تحدث سرا بين العاشقين على سبيل الاستعارة التبعية، فقد استعار المناجاة للترسل والكتابة عن القمر، واشتق من المناجاة الفعل يناجي، ولعل السر وراء الاستعارة أن يريك إمكانية اكتساب الحب، فقد طلبتْ الحبيبة أن يراسل القمر رغبة منها في تغيير نظرته له، وتوسيع أفقه، ونقله من ساحة الحقيقة إلى ساحة الخيال، وقد فعل استجابة لطلب المحبوبة التي يفعل من أجلها الكثير، فهي التي تشع حبا، ولكن ... أما آن له أن يتعلم منها؟!!! فسنرى.

وليعلي من القمر أيضا أتى باسم الإشارة في قوله: (هذا الجميل)؛ لاستحضار صورته، فجعلك تنظر إليه وتتمعن به؛ لتتعلم أنت أيضا معانى الحب. وقد أطلقتْ على القمر (الجميل)، أو أن الرافعي ترك النعت وحذف المنعوت؛ للتعظيم من شأنه، وكأن الصفة اسم له، وليست صفة من أوصافه قد تطلق عليه تارة، وتنفصل عنه تارة أخرى.

ومن ثم قوله: فقال: حبا وكرامة للقمر؛ ليشعرك بهذا الاستئناس وهذا اللطف الذي حدث بينهما.

ويستأنف التعبير بالخبر في بداية رسالته حين كتب:

(إني لأراكَ أيُّها القمرُ مُنذُ علقتْ معاني ما أرى، ولكني لم أعرفْ أنَّكَ أنتَ كما أنتَ، إلا بَعدَ أن وَضَعَ الحُبُّ فيها بينكَ وبينَ قلبي وَجَهَ مَن أهواها، كما يُوضَعُ التفسيرُ إلى جانبِ كلمة دقيقة.).

حيث أنزل غير المنكر منزلة المنكر عندما شبه القمر بإنسان يخاطبه على سبيل الاستعارة المكنية، وأخذ يثبت له أنه كان يراه منذ طفولته التي تعلَّم فيها معاني ما رأى، فاستخدم (أن واللام)؛ للتأكيد عن رؤيته له ومعرفته الدقيقة لخصائصه، وكأن القمر كان يتعجب لعدم مؤانسة الرافعي به من ذي قبل، بل يشك أنه يراه، فأكد الرافعي أنه كان يراه منذ نعومة أظافره.

وعلوق المعاني في الذهن استعارة في لفظ (علقتْ)؛ حيث استعار العلوق لاكتساب الطفل تلك المعاني في السنين الأولى، فالقمر يعد من المعاني المكتسبة لا شك مبكرا، إلا أن دلالة المعاني تتغير مع تغيير وتطور عقل الإنسان، لذا قال: ما (أرى) بالمضارع، ولم يقل التي رأيت؛ ليوضح أن الإنسان يتعلم طول حياته، فالعلم لا ينتهي؛ لقوله تعالى: " وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا "[(١)].

لذلك أيضا نكَّر كلمة (معاني)؛ لتصبح غير مكتملة وغير محددة؛ إذ إن نطاق فكرك يتسع بمرور الوقت واكتساب المعارف، فكأن الرافعي يتأسف للقمر أنه كان يراه بصورة متجردة من الخيال، فأتى بالاستدراك: "لكني لم أعرف أنك أنت كما أنت"، فلم يناقض بالاستدراك ما أتى قبله، وهو أنه كان يراه، ولكن ليبين أن الصورة التي كان يراه فيها مختلفة تماما عن تلك الصورة التي يراها الآن.

---

(١) سورة الإسراء، جزء من آية (٨٥).

وللتأكيد على هذا المعنى أتى بعد ذلك بأسلوب القصر: (لم أعرف أنك أنت كما أنت، إلا بعد أن وَضَعَ الحُبُ فيها بينك وبين قلبي وجهَ مَن أهواها)؛ ليثبت أنه بالحب قد يغلب التطبع الطبع، حيث جعل الحب شخصا يستطيع أن يضع ويغير على سبيل الاستعارة المكنية؛ ليعلي من شأن العاطفة وسموها، فقد كانت معرفته بالقمر معرفة سطحية؛ لذا قال في بداية عبارته: (إني لأراك) فعبر بالرؤية، وعند اختلاف الأمر قال: (لم أعرف أنك أنت كما أنت)، والمعرفة تختلف عن الرؤية؛ لأن الرؤية تخص الناحية الشكلية وتكون بالبصر، أما المعرفة تكون داخلية لما هو خاص بالطبائع والصفات، ويعد الضمير في لفظة (فيها) وهو العائد على المعاني، دليلا ظاهرا على تأثره بهذا الحب.

ولأن وجه محبوبته غيّر رؤيته للحياة ومعانيها لديه، شبه تفسير الحب وتأثيره على ماهية الأشياء من حوله قاصدا أهمية القمر كمن يفسر كلمة غامضة فيقول لمن يخاطبه: دقيقة، ويلقي بشرح الكلمة من بعدها؛ ليعطيك صورة محسوسة لما كان يشعر به من غموضٍ حول مدلول القمر، وفضل الحب عليه في تفسيره، على سبيل التشبيه التمثيلي.

فتجد أن التعبير بالخبر شرح لك وأكد على ضرورة وجود هذا الحب في حياة كاتبنا، وعدم مقدرته على الاستغناء عن هذا الوجه الملهم لديه، والمفجر لمشاعره، وهذا يتناسب مع حالة الحرمان التي كان يعانيها الرافعي في حبه؛ حيث اتخذ لنفسه سبيلا يشبع ذاته، وروحه، ورغباته، بطريقة لا يتسلل إليها الشيطان.

***

الإقناع بالقصر:

قوله: (أتَذْكُرُ إذ نزلْتَ علينا بآياتِ سِحرِكَ، فخيَّلتَ لي أنَّ العالم قد تحوَّلَ فيها إلى صورةٍ جميلةٍ مرئيةٍ، أمستْ لي وحدي، فملكتُ العالمَ كله في ساعةٍ، من حيثُ لم أملكَ إلا الحبَ؟

أترى يا قلبي، كأنَّ هذا القمرَ إنما يُلقِي النورَ على الحُلمِ الروحانيّ اللذيذِ الغامضِ، الذي يحلمُ به كلُّ عاشقٍ مِن أوَّلِ درسٍ في الحُبِ، ساعةَ تُرْسِلُ الحبيبةُ إلى قلبِهِ رسالةً عنها، ولا يحلمُ بمثلِهِ في غيرِ العشاقِ إلا أعظمُ الفلاسفةِ، وفي آخرِ دروسِ فلسفتِهِ، وبَعدَ أنْ تكونَ الليالي الطويلةُ قد أطلعتْ في سماءِ عمُرِهِ قمرَ الشيخوخةِ مِن شعرِهِ الأبيض؟

أترى يا قلبي، كأنَّ هذا القمرَ في الحُبِّ (تلسكوبٌ) يكبِّرُ نورُهُ العواطِفَ؛ حين تبثّ في ضوئِهِ، فلا يَطَّلِعُ على حبيبين أبدًا إلا كَبُرَ أحدُهما في عينِ الآخرِ؟

أترى يا قلبي أنه ليس في الحُبِّ إلا عواطفٌ مكبرةٌ يُثيرها دائمًا وجهُ الحبيبِ، فلا بد أنْ يكونَ دائمًا وجهُ الحبيبِ طالعةً فيه روحُ القمرِ؟

أترى يا قلبي ...؟ آهٍ ... أترى؟

للقصر بلاغة في تأكيد المعنى في ذهن السامع بطريقة وجيزة تدفع إي إنكار أو شك؛ وقد أتى به الرافعي في العبارة الأولى؛ ليركز على تأثير الحب في حياة الإنسان، فكيف لا يملك الإنسان إلا قدرا من المشاعر التي تشعره بامتلاك العالم كله، من قصر الصفة على الموصوف، أي قصر صفة امتلاك العالم على المحب.

وذكره للجار والمجرور (في ساعة) تتميما، أظهر السرعة الفائقة التي يمنحها الحب للمحب في تحقيق أهدافه.

ثم جاء في العبارة التي تليها: وقصر صفة التلذذ بالأحلام الروحانية على الفلاسفة، من قصر الصفة على الموصوف أيضا، فهم الذين يعلمون معنى كل شيء في هذه الحياة، يدققون في زواياها وتفصيلاتها؛ ليعرفوا معنى كل شيء يحدث معهم فيها.

ثم أتى بالاحتراس الذي هدم ما أثبته في القصر من قبله وهو قوله: (في غير العشاق)؛ إذ إن العاشق يصل لتلك الحقائق التي تحتاج إلى دراسة العلماء بقلبه وصدق مشاعره.

وكما أبدع الرافعي في إدخال الفلسفة على الحب، إلا أنه يسخر ممن يتشبث بها فينسى أن للحب سهمًا كسهام الفلسفة بل هو أقوى؛ لذا يعزز من العشق والعاشقين فيقول: (وفي آخر دروس فلسفته) أي أن الفلاسفة لا يتوصلون لهذه المعاني السامية التي يشعر بها المحب إلا في آخر درس لهم في الحياة، فيكاد العاشق يحكي عما يشعر به من سعادة ورجفة وبهجة، ويكاد الفيلسوف يصل إلى تلك النتائج بل أقل منها، (بعد أن تكون الليالي الطويلة قد أطلعت في سماء عمره قمر الشيخوخة من شعره الأبيض) كناية عن كبر سنه، وخضرمته بالدراسة والتجارب.

وتراه قد استعار للفيلسوف قمرًا كالمحب في قوله: (قمر شيخوخته)، ولكنه يختلف عن قمر المحب، فقمره ينهيه ويشعره بدنو أجله، بينما قمر المحب يحييه ويشعره بجمال عالمه.

ثم قال:

أترى يا قلبي، كأنَّ هذا القمرَ في الحُبِّ (تلسكوبٌ) يكبِّرُ نورُهُ العواطِفَ؛ حين تبثّ في ضوئِهِ، فلا يَطَّلِعُ على حبيبين أبدًا إلا كَبُرَ أحدُهما في عينِ الآخرِ؟

أتى بتشبيه غير مألوف للقمر؛ عندما شبهه بالتلسكوب الذي يكبر نوره العواطف، فيجعلها ظاهرة؛ حيث يرتكز ضوؤه عليها في ظلام الليل، فيجعلها في تمام الوضوح. وهذا التشبيه أضفى جوا من العمق العاطفي. والعواطف لا تكبر وتصغر، والنور لا يستطيع إظهارها، ولكنه آثر التصوير الحسي؛ ليدخلك في عالمه، فكأنك تشاهد فيلما خياليا عبر شاشة التلفاز.

ثم قصر على القمر صفة التوفيق والجمع بين الحبيبين، فعندما يلتقيان لديه ويهبط أنواره عليهما يشعران بالألفة والتفاهم دون تدخل أحد غيره، من قصر الموصوف على الصفة، قصرا ادعائيا.

ثم يأتي في الختام ويقصر وجه الحبيب على اجتلاب الحب والعواطف والمشاعر في نفس المحب الذي دائما ما يشبه القمر عندما قال:

أترى يا قلبي أنه ليس في الحُبِّ إلا عواطفُ مكبرةٌ يُثيرها دائمًا وجهُ الحبيبِ، فلا بد أنْ يكونَ دائمًا وجهُ الحبيبِ طالعةً فيه روحُ القمرِ؟

وذلك يعدُّ من قصر الموصوف على الصفة.

***

الإقناع بالإنشاء :

ظهر الأسلوب الإنشائي في العبارة وتكرر في مخاطبته للقمر ولقلبه، بعبارة (أتذكر أيها القمر)، وقوله: (أترى يا قلبي) المتمثل في الاستفهام التقريري، دلالة على عدم إفصاح الرافعي بهذه الرسائل، فهي رسالة مختزنة لم تخرج إلى النور، ولم ترها إلا صاحبتها، بل يمكن أن تكون رسالة متخيلة، ولم ترسل إلى أحد.

يقول الرافعي:

(أَتَذْكُرُ وقد لمسْتَ فكري بصوتكَ لمسةَ نورٍ فأظهرتَها لي، كأنها في جمالِها الظاهرِ شكلٌ دينيٌّ، وُضِعَ؛ ليكونَ مثالا لعبادةِ القلبِ الإنسانيّ؟!!

حيث شبه القمر بإنسان يخاطبه على سبيل الاستعارة المكنية، كما هو سائد في المقال كله، في قوله: (أتذكر)، وإثبات التذكر للقمر استعارة تخيلية؛ إذ إنه لا يستطيعه.

والملاحظ أن اللفظ (أتذكر) أحيا الذكرى التي بينه وبين محبوبته، ونداء القمر بـ(أيها) فيه تعظيم لشأنه ولضوئه الذي أنار الدنيا حينها.

وفي قوله: (لمسْتَ) استعارة تبعية، والقرينة لفظة (فكري)، وهي المفعول به؛ إذ إن الفكر شيء معنوي لا يلمس ولا يحس ولا يرى، ولكنه استعار اللمس للتأثير والتغيير، أي أثرت على فكري، أو غيرت فكري، أو أوسعت فكري لأن أرى هذا الجمال في صورة أخرى لم أكن أراها من ذي قبل؛ حيث شبه محبوبته وهي في جمالها الطاهر الذي هو كناية عن حيائها ونقائها وطيب كلامها بالنموذج المادي الذي يتمناه كل قلب فلا ينقصه شيء.

فبعد أن أوضح الرافعي تأثير الحب على نظرته للأشياء، ومنها نظرته لذلك القمر، تراه استغل طلب محبوبته بمناجاته لهذا القمر الجميل؛ ليحدثها عن جمالها ومدى حبه وعشقه لها، فأخذ يستدرجها بعبارات رنانة ذات طابع إنشائي متوهج؛ جعل سامعه –أي محبوبته– في انتظارٍ للإجابة، وأضفى عليه شعورا متخيلا بتحقيق أمنيته –أي القائل– في رد القمر عليه بقوله: نعم أذكر، مما يشبع نفسه وقلبه.

***

المبحث الثاني
تنوع الاستدراك وبلاغته في البنية الإقناعية لرسالة "القمر"

مدخل:

تميز أسلوب الاستدراك ولمع في البنية الإقناعية لهذه الرسالة محل الدراسة، أي أنه كان جزءًا أصيلا من الطريقة التي بُنِي بها النص؛ لتحقيق غرض الإقناع، وأداته "لكن"، وهي من أهم الروابط الإقناعية ذات التأثير العالي على المتلقي في التمييز بين المعاني المتنوعة في الرسالة، فكأن المبحث الأول كله -بجميع ما ذكر فيه- بمثابة أداة إقناعية للقارئ؛ يوضع بأكمله في كفَّةٍ، والاستدراك في الكفَّةِ الأخرى، مما يؤكد على أهمية الاستدراك وبلاغته وظهوره القوي في هذه الرسالة، والذي يُعد في منتصفها ومركزها بعد مطلعها. وإن كانت الأساليب أو العناصر التي ذكرتها سابقا هي أعمدة الإقناع، واللغة هي اللبنات التي تتكون منها، إذًا فإن الروابط الإقناعية هي المواد التي توضع بين اللبنات؛ لتقوي ثبات هذا البناء.

وبالاستدراك أكد الرافعي على اختلاف نظرته للقمر بسبب حبه لفتاته -والذي تعرضت لتحليله في الفصل الأول- ليسري هذا المعنى ويتحرك عبر المقطع الثاني الذي سأتناوله الآن؛ ليبرز مقصوده بوضوح.

والرافعي من البلغاء الذي قال عنهم: إنهم أرواح الأديان والشرائع والعادات، وهم ألسنة السماء والأرض، وهم من يتصفون بقوة التصوير وقوة ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة، وهما صفتان من قوى الخلق، تقابلان الإبداع والنظام في الطبيعة[1]. ولنر هذا الخلق لديه في استخدامه لأسلوب الاستدراك، وتنوع التعبير به في هذا الفصل حسب اختلاف مشاعره، وقوة الرافعي في توظيفه عندما اختلف منظوره، فأبدع في إقناع السامع بما يرى ويشعر.

---

(١) ينظر مقدمة حديث القمر: لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٧، ٨.

***

اعترف الرافعي باختلاف نظرته للقمر وإحساسه به، وتحوله من نجم في السماء يضيء الليل إلى حب ينير القلب، قمر لم تتضح معالمه قبل معرفته لهذه المحبوبة، لذا تغير تعبيره عنه قبل حبه لها عما هو بعده.

أولا: الاستدراك الحسن

يستخدم الاستدراك لرفع تَوَهُّم يتولد من الكلام المقدم، فيأتي؛ لتوضيح ما عليه ظاهر الكلام من الإشكال؛ لذلك عُدَّ من المحاسن إذا وَفَّى وظيفته؛ لذا سميته بالاستدراك الحسن. وفي سياق وصف رؤيته للقمر يقول قبل مرحلة الحب:

أما قبل حبها: فكنتُ أراكَ أيُّها القمرُ بنظراتٍ لا تَحْمِلُ أفكارًا.

كنتَ جميلًا، ولكن جمالُ ورقِ الزهرِ الأبيضِ، وكنتَ في رُقْعَتِكَ المُضيئةِ، تُشبِه النهارَ مطويًّا بعضه على بعضٍ، حتى يرجِعَ في قَدْرِ المنديلِ، وكنتَ ساطعًا في هذِه الزرقاءِ، ولكن سطوعُ المصباحِ الكهربائيّ على منارةٍ قائمةٍ في ماءِ البحرِ، وكنتَ زينةَ السماءِ، ولكنْ كما تُناطُ مرآةٌ صغيرةٌ مِن البِلَّوْرِ إلى حائطٍ فتُشبِهُ من صفائِها موجةَ ضوْءٍ أُمسِكتْ ووُضِعتْ في إطارٍ مُعلَّقٍ!

وكنتَ يا قمر ... كنتَ ملءَ الوجودِ، ولكنك ضائِعٌ مِن فِكري!

•••

يقول الرافعي أنه قبل مرحلة الحب يرى القمر بنظرات لا تحمل أفكارا، كناية عن عدم انشغاله بشيء، أو عدم الخوف من افتقاد شيء، أو يمكن القول أيضا بعدم الاهتمام بشيء، فالنظرات كانت مجرد نظرات بصرية بالعين فقط، لا تحمل فكرا أو تأملا خاصا بأي شيء.

ثم أتى بالاستدراك في صورته المألوفة –وهي رفع توهم يتولد من الكلام المقدم– فقال: (كنت جميلا ولكن جمالُ ورق الزهر الأبيض)؛ حيث أثبت له الجمال في الجملة الخبرية الأولى (كنت جميلا)، وصدرها بالفعل الماضي الذي يؤكد على جماله آنذاك

في عينه جمالا خاصا يخص تلك الحقبة وأفكارها، وبسبب تغير تلك الأفكار الآن أتى بالاستدراك الذي غيَّر هذا الجمال، أو القول بإنه حدَّ من هذا الجمال بجمال ورق الزهر الأبيض، وجميعنا عاشق لهذا الورق الأبيض الناصع الذي يدل على النقاء والصفاء والحب الصادق، إلا أن لكل لون من ألوان الزهر معنى يدل عليه ويميزه، فاللون الأصفر مثلا يحمل معنى الغيرة، والأحمر يحمل معنى الحب العميق، وغيرها من الألوان الأخرى التي لم يتلمسها الرافعي إلا بعد أن أدرك محبوبته وعرفها وعشقها فاقتربت منه جميع الألوان بمعانيها، بعد أن كان مقتصرا على لون واحد وهو الأبيض. لذا واصل هذا الجمال المختزل بأن شبه ضوء القمر وسط الظلام الحالك لليل بالنهار المطوي بعضه على بعض، أي كناية عن النهار الذي لا تظهر فيه نور الشمس الساطعة تمام السطوع على سبيل التشبيه التمثيلي. لذا قال: (رقعتك) ولم يقل سماؤك مثلا، التي تعبر عن صغر المكان الذي كان يرى فيه القمر؛ فترقيع الثوب[١]: أن ترقعه في مواضع، والكلمة تحمل تجسيدا أيضا حيث جعل القمر بضوئه وسط الليل كقطعة من الثوب الجديد الذي وُضِع محل الفاسد فجعله جميلا.

كما أنه جعله نهارا صغيرا يمكن تقليصه وإلقاؤه في المنديل الصغير، وخص المنديل؛ كنايةً عن قلة اهتمام الرافعي بالقمر وقتها، فهو يُلقى بعد استعماله، وفيها أيضا نوع من التقليل لشأن القمر، كما أن النهار لا يُطوى ولا يُلقى، ولكنه شُبِّه بالشيء المادي الذي يمسك باليد على سبيل الاستعارة المكنية، التي ظهرت بلاغتها في توضيح فقر مشاعره في هذا الوقت، وقت ما قبل الحب!.

وبمتابعة الاستدراك في قوله: (وكنتَ ساطعًا في هذه الزرقاءِ، ولكن سطوعُ المصباحِ الكهربائيّ على منارةٍ قائمةٍ في ماءِ البحرِ) تجده يؤدي دورا مهما في بيان الحد الذي كان القمر عليه في نظر الرافعي الخالي قلبه من الحب؛ وناسب ذلك حذف

---

(١) لسان العرب مادة (ر ق ع).

اسم (لكن) والتقدير: (وكنت ساطعا؛ ولكنَّ سطوعَكَ سطوعُ المصباح ....) الذي دل على عدم تقدير الرافعي للقمر؛ حيث شبه حال القمر وهو وحيد منير في السماء الزرقاء بحال المصباح الذي ينيره البحارة على المنارة في وسط البحر الواسع، ولكن هذا النور ما هو إلا نور مصباح ينير في عين الكاتب يراه ويمشي دون أن يمثل له أي فائدة أو أهمية، بل أهميته تكمن لدى البحارة، وهو لم يبحر بعد.!

وكان له أن يقول: وكنت ساطعا في هذه الزرقاء تشبه سطوع المصباح، لكنه أتى لك بأسلوب الاستدراك قبل ذكر التشبيه؛ ليريك جمال القمر وسطوعه بين الحقيقة ونظرته البعيدة عن تلك الحقيقة يوما ما، مما يبين أثر الاستدراك على الصورة التشبيهية في النص.

ثم قال: (وكنتَ زينةَ السماءِ، ولكن كما تُناطُ مرآةٌ صغيرةٌ مِن البِلَّوْرِ إلى حائطٍ فتُشبِهُ من صفائِها موجةَ ضوْءٍ أُمسِكتْ ووُضِعتْ في إطارٍ مُعلَّقٍ!)

راعى الرافعي جميع خصائص القمر؛ فقال: (كنت جميلا)، (وكنت ساطعا)، (وكنت زينة)، فهو لم يحرص على ذكر صفتي الجمال والسطوع فحسب، بل هو زينة للسماء؛ أي راعي الرافعي الشكل والجوهر للقمر.

وإضافةُ كلمة الزينة إلى السماء بها علوٌ لشأن هذا القمر في ذاته، لكنه ليس بهذا القدر من العلو لدى نظرته بعد الاستدراك في مرحلة ما قبل الحب؛ إذ شبهه وهو عالٍ وسط السماء الواسعة ويزينها بضوئه الساطع بمرآة صغيرة صافية –لأنها مصنوعة من البلور– لها ضوء ناتج من انعاكسها ومعلقة في إطار على الحائط.

وبالطبع لا تتساوى طبيعة حقيقته مع هذا التشبيه المستدرك؛ لأن الأسلوب الخبري في قوله: (كنت زينة السماء) يدل على الاتساع والحرية والجمال المطلق، أما التشبيه فعلى الرغم من جماله المأخوذ من جمال ذلك البلور الناصع إلا أنه مقيد بتعليقه على الحائط، فلا يصل هذا النور إلا إليه –أي الرافعي–، كما أن القمر موجود في السماء عالٍ يحسه القريب والبعيد، وهذا البلور موجود على الأرض لا يشعر به

أحد سواه، مما يظهر حالة الرتابة التي كان عليها قبل حبه، والتي يعاني منها الكثير من الأشخاص بعد فترة من الارتباط؛ فالرافعي يعلمنا أنه يجب على المرء إنعاش حياته بيده، وطلب التغيير المستمر فيها، حتى يصبح ضوء القمر ساطعا عاليا في نظرنا طوال الوقت. وتعتبر هذه الكتابات وإن كانت متخيلة، إلا أنها جددت الشوق والحب لزوجه التي كان يحبها كثيرا ويعترف بفضلها عليه؛ لذا يجب أن نعرف ذاتنا واحتياجاتنا وهواياتنا جيدا، ونطوعها من أجل عيشٍ هانئٍ سعيد.

ثم عانق تشبيهه بتشبيه آخر فقال: (مرآة صغيرة من البلور فتشبه من صفائها موجةَ ضوءٍ) فشبه قطعة البلور بموجة الضوء بجامع الصفاء في كل، وجسد هذا الضوء وجعله ممسوكًا باليد عندما قال" (أُمسِكتْ ووُضِعتْ)، والضوء لا يُمسَك، على سبيل الاستعارة المكنية، كما أنه لا يوضع في إطار، ولكنه فعل هذا؛ ليدل على صغر أفقه ونظرته للقمر قبل التعرف على الحب.

ثم ختم فقرته بالاستدراك أيضا وقال: (وكنت يا قمر.. كنت ملءَ الوجودِ، ولكنك ضائعٌ من فِكري) بالفصل بين الجملة الأولى والثانية؛ لشبه كمال الاتصال، حيث جعلك تتساءل بعد قوله: (كنت يا قمر) عن الحال الذي كان عليها القمر ثم أتاك بالجواب: (كنت ملء الوجود) وهذه مكانته الحقيقية الخارجة عن نفس الرافعي، ثم استدرك؛ ليعطيك مكانته في نفسه عندما قال: (ولكنك ضائع من فكري) فجعل القمر كأنه فكرة من ضمن الأفكار المتروكة لديه؛ إذ إن القمر كان يملأ الكون كله بنوره، ولكنه كان يراه بعين تائهة، وفكر شارد، كناية عن عدم التفاته إلى هذا الجمال، فهي تراه، ولا تراه!.

وقد يكون الفصل لكمال الاتصال، فتكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى، والتقدير: كنت يا قمر عظيمًا مثلا، والدليل على ذلك مناداته بالأداة (يا) التي هي للبعيد والتي يشعر منها في هذا المقام أنها لعظم الشأن أيضا، ولكنه قصد أن يناسب بضياع الخبر ضياعه من فكره الذي حدثنا عنه في جملته الثالثة.

هذا ما وصفه الرافعي لنا في مرحلة ما قبل الحب، تلك المرحلة التي وظف استدراكاته فيها توظيفا دقيقا علَّمك بها فضل الحب؛ ليؤثر على سامعه؛ فيتلقى هذا الكم الهائل من المشاعر ويصدقها؛ إذ أخذ يقيِّم لك ما مضى؛ ليرسخ قواعدَ شتى جديدة يجعلها بداية جديدة له.

***

ثانيا: الاستدراك الراقي

في هذا الجزء يتحدث الرافعي عن مرحلة ما بعد الحب، ونظرته المختلفة للقمر، هذا القمر الذي كانت تستأنس به فتاته الجميلة، والتي كانت سبب حبه لقمره الجديد.

وسميتُ هذا الاستدراك بالاستدراك الراقي؛ نظرا لارتقاء مشاعره، واختلاف وجهته الحياتية في هذا الجزء؛ وعليه اختلاف أسلوب التعبير عنها؛ لذا قلَّ أسلوب الاستدراك هنا عن سابقه، وأتى بصورة مخالفة أيضا لما هو متعارف عليه. تراه يقول بعد مرحلة الحب:

وأما بعد حبها، فأمسيتُ أراكَ أيُّها القمرُ ولستَ إلا طابَعَ اللهِ على أسرارِ الليلِ في صورةِ وجهٍ فاتنٍ، كما أنَّ كلَّ وجهِ معشوقٍ هو طابَعُ اللهِ على أسرارِ القلبِ الذي يحبه.

فأنتَ جميلٌ جمال الجسمِ البضِّ العاري، تكادُ تُشبِهُ صدرَ الحبيبةِ، كشفَتْ أعلاه فظهرَ في بريقِ الفضةِ المجلوةِ.

وأنتَ فاتنٌ تحاكي في ضوئِكَ وجهَها لولا أنكَ بلا تعبير.

وأنتَ ساطِعٌ بين النجومِ، ولو تَجَسَّمتْ صورةٌ من أجملِ ضحكاتِ ثغرِ معشوقٍ لكانتْ، ولو تَجَسَّمتْ القبلاتُ المنتثرةُ حول هذا الثغر لكانَتْها!

وأنتَ زينةُ السماءِ، ولكنَّ السماءَ منكَ كمرآةٍ سِحريةٍ اطَّلعتْ فيها حوريةٌ من حور الجنةِ، فأمسكْتَ خيال وجهِها في لُجَّةٍ من النورِ، فأنتَ خيالُ وجهِها!

وأنتَ يا قمر ... أنتَ ملءُ الوجودِ، ولكنَّكَ أيضًا ملءُ فنِ الحبِ ...!

•••

ويلاحظ الاختلاف بين التعبيرين، تعبير ما قبل حبها الذي قال: (كنت أراك بنظرات لا تحمل أفكارا)، والآن بعدما قُذِف الحب في قلبه قال:
وأما بعد حبها، فأمسيتُ أراكَ أيُّها القمرُ ولستَ إلا طابَعَ اللهِ على أسرارِ الليلِ في صورةِ وجهٍ فاتنٍ، كما أنَّ كلَّ وجهِ معشوقٍ هو طابَعُ اللهِ على أسرارِ القلبِ الذي يحبه.

فبدأ بلفظ (أمسيت) ولم يقل: أصبحت؛ ليريك أنه أحب وشعر وتعلق وتغيرت نظرته، واقتنع بقراراته الجديدة من الصباح إلى الليل، كناية عن تمام الإيمان بها، فكأنه نسى جميع ما مضى، وأصبح مفعما بالحب؛ دلالة على الشمول والثبات.

وعندما تغيرت النظرات المجردة إلى عقيدة صُوِّرتْ في أسلوب القصر مخاطبا القمر: (وليستَ إلا طابَعَ الله على أسرار الليل) تأكيدا على معجزات الله الواضحة، فالطابَع بفتح الباء ما يُطبَع به، من الطبع أي: الختم وهو التأثير في الطين ونحوه[١]، فتراه شبه القمر الذي خلقه الله –عز وجل– فجعله واضحا في الليل بنوره، بالختم الذي يُطبع به على الرسائل، فيكون ظاهرا، يوضح قدرة الخاتِم لدى الأمر المكتوب فيه على سبيل الاستعارة التمثيلية.

إذًا فإن كلمة (أسرار) مجاز مرسل علاقته الكلية؛ باعتبار أن المقصود بها في الاستعارة هو الرسائل، ولكنه لم يذكرها، بل ذكر تلك الأسرار التي هي جزء منها، والتي تَحْدُث كثيرا في الليل بالمناجاة؛ ليناسب قدرة الله –تعالى– على معرفة مكنون جميع الموجودات. وقد يُحمل الكلام في (أسرار الليل) على الكناية عن خفاياه. وهي الأرجح والله أعلم.

وتابع تلك الاستعارة بأخرى عندما قال: (في صورة وجه فاتن)، فشبه هذا القمر الدائري المنير بوجه الفتاة الفاتن، والذي لم يستطع أحد رسمه غيره تعالى.

---

(١) لسان العرب مادة (ط ب ع).

وانتهز الرافعي فرصة الحديث عن القمر وتشبيهه بطابع الله على الليل؛ ليتحدث عن تأثير وجه معشوقه على قلبه كذلك، فهو كالختم على قلبه فقال: (كما أن كل وجه معشوق هو طابع الله على أسرار القلب الذي يحبه) على سبيل التشبيه التمثيلي.

وإذا عقدنا موازنة بين التعبيرين –ما قبل الحب وما بعده– ترى تأثير الاستدراك على بلاغة الأسلوب؛ حيث قال قبل حبها: (وكنت جميلا، ولكن جمالُ ورق الزهر الأبيض)، وقال هنا: (فأنت جميل جمال الجسمِ البض العاري، تكاد تشبه صدرَ الحبيبةِ كشفت أعلاه، فظهر في بريق الفضة المجلوَّة)، ورغم أن تشبيه القمر بالجسم الأبيض العاري الذي يشبه الفضة المجلوة خلاب، أي نسبة جماله تفوق جمال الزهر الأبيض الهادئ، ولوما كان أخَّاذا لما ذكر لفظة (تكاد)؛ ليخفف من مبالغته، إلا أن الاستدراك في التشبيه الأول قد نبه السامع، واستوقفه للتأمل في الكلام المستدرك، وجعله متشوقا لما سيقال، وجعله يتساءل هل سيناقض به – أي بالاستدراك– كلامه أم ماذا، كل هذا يعد من بلاغة الاستدراك الغائبة في التشبيه الثاني.

وهذا أيضا ما حدث في التعبيرين التاليين على السواء، فقال قبل حبها: (وكنت ساطعا في هذه الزرقاء، ولكن سطوع المصباح الكهربائي على منارة قائمة في ماء البحر)، وقال هنا: (وأنتَ ساطِعٌ بين النجومِ، ولو تَجَسَّمتْ صورةٌ من أجملِ ضحكاتِ ثغرِ معشوقٍ لكانتْ، ولو تَجَسَّمتْ القبلاتُ المنتثرةُ حول هذا الثغر لكانَتْها!)

اختلف الجمال بعد الحب عما قبله لذا قال هناك: كنت ساطعا، مصدرا بـ(كان) ومعقبا بالاستدراك الذي أوضح لك حجم ذلك الجمال في عينه وقتها، بينما اختلف أسلوبه الخبري هنا فاستخدم الضمير المخاطب (أنت)؛ ليثبت له الجمال الدائم بعيدا عن زمن خاص، بل هو جميل في جميع الأزمان، ولم يستخدم الاستدراك؛ ليخفض ذلك الجمال، بل استخدم التصوير البياني والمبالغة؛ ليعلي من ذلك الجمال الذي

أصبح يراه بعد معرفته بتلك المحبوبة؛ حيث شبه صورة القمر الجميل الواضح بنوره والنجوم ساطعة من حوله تستمد نورها منه، بصورة الثغر الجميل الذي تملؤه الضحكات فتشع نور البهجة والسعادة منه وتستمد كل قبلة مأخوذة منه نصيبها من ذلك النور وتلك البهجة، على سبيل الاستعارة التمثيلية.

وكأن الحب عندما دخل قلبه انشغل بوصفه، وحَدَّ من فلسفته التي كان يتعاطاها من ذي قبل، ولأن لكل مقام مقالًا، فكان مقاله هنا ملائما للحال التي هو عليها.

وتلاحظ أنه استخدم الصفات نفسها التي وصف بها القمر من قبل حبه، لكنه زاد عليها صفة الفتنة، التي قال عنها: (فأنت فاتن تحاكي في ضوئك وجهها، لولا أنك بلا تعبير)؛ وذلك لفتنته بتلك المحبوبة؛ حيث استخدم الرافعي التشبيه المقلوب؛ ليعلي من جمال القمر عن طريق المفاضلة بينه وبين محبوبته، ولكنه في الحقيقة يمدح محبوبته ويشهد لها بالفوز والتفوق عليه بجمالها؛ فجعل جمال وجه محبوبته أصلًا لضوء القمر، ولم يكتف بل زاد زيادة بليغة على سبيل الإيغال؛ حيث استدرك استدراكا معنويا بغير أداته فاستخدم (لولا) عندما قال: (لولا أنك بلا تعبير)؛ وهذا الاستدراك أفاد التقليل، أي أنك تشبهها أيها القمر في الجمال فحسب، لكني مفتون بروحها وحديثها وضحكاتها وأفكارها، وأنت لا تمتلك من هذه الصفات شيئا.!.

ثم رجع واستدرك بـ(لكن) فقال:

وأنتَ زينةُ السماءِ، ولكنَّ السماءَ منكَ كمرآةٍ سِحريةٍ اطَّلعتْ فيها حوريةٌ من حور الجنةِ، فأمسكْتَ خيال وجهِها في لُجَّةٍ من النورِ، فأنتَ خيالُ وجهِها!

ولو تذكرتَ ما قاله قبل حبه تجد أن الاستدراك كان يدفع توهم أن الزينة التي يحققها القمر تكون كبيرة، بل هي كمثل الزينة التي تحققها مرآة صغيرة من البلور معلقة في إطار على حائط، بينما الزينة التي ذكرها للقمر هنا أعلى من سابقتها؛ إذ إن الاستدراك لم يدفع توهمًا كالمألوف بل يرفع بالمعنى إلى أعلى؛ فمرآته هنا سحرية ظهرت فيها حورية من الحور العين، أي أنه شبه القمر وهو متلألئٌ في السماء

يزينها بجمال الحورية التي هي جزء من الجنة، والتي يظهر ضوء ظلها في مرآة سحرية، وتلاحظ أن تركيب التشبيه هنا يختلف عما قبل الحب، ففي السابق كان القمر من السماء بمثابة المرآة على الحائط، وبعد الحب أصبح القمر من السماء بمثابة الحورية على المرآة، والفارق كبير؛ لأن حجم المرآة قد اختلف، فهناك كانت مرآة صغيرة تناسب صغر القمر في السماء، بينما المرآة هنا كبيرة تناسب كبر السماء، مما يزيد من حجم الضوء دلالة على الاتساع والحرية في الحب. لذلك قال: (أمسكتَ خيال وجهها في لجة من النور)، ولُجَّة الأمر[١]: معظمه، والخيال لا يمسك، والنور ليس له لجة، ولكنه شبه النور بلجة البحر كناية عن اتساعه.

كما أنه لم يشبه وجهها نفسه بالقمر، بل شبهه بخيال وجهها؛ وأظن أنه ذكر كلمة (خيال)؛ ليقلص من حجم الضوء مراعاة للتشبيه؛ لأن ضوء القمر ضوء خافت فناسبه ضوء الظل.

ثم ختم فقرته بالاستدراك كما فعل سابقا أيضا، وبالتركيب نفسه حينما قال: (وأنت يا قمر.. أنتَ ملءُ الوجود، ولكنك أيضا ملءُ فنِ الحبِ!)

فكون القمر ملء الوجود وهو حقيقة ثابتة لا يغاير المعنى الذي أضافه من أنه (ملء فن الحب)؛ فكما أن النكات البلاغية لا تتزاحم، فأيضا نظرته للحياة أصبحت متحررة، متأملة، متشبثة بها، فبك يا قمر يكون اللقاء، وبك يكون التناغي والدلال، فأنت جزء من الحب، بل أنت الحب كله..!

وأخيرا وليس آخرا...أقول: لقد اتضحت بلاغة الاستدراك عالية في هذا المبحث؛ حيث كان له من الأثر على الصورة التشبيهية والتركيبية ما يجعله يستحق الدراسة في هذا البحث. والله ولي التوفيق.

*** * ***

---

(١) لسان العرب مادة (ل ج ج).

المبحث الثالث

رساله القمر من النسق المغلق إلى النسق المفتوح

لا شك أن الأديب أو الشاعر عندما يكتب نصا، يكون بداخله فكرة تشغله وتسيطر عليه، فيأخذ يفكر بها حتى تكبر في أعماقه، فيخطط لها، ويحاول مرارا وتكرارا؛ لتوصيلها، والتأثير على المخاطب؛ للتفاعل معها بالانسجام مع النص، ومعرفة ما يقصده. والتعبير عن فكرته يكون إما بالإفصاح عنها بطريقة مباشرة، أو بطريقة فلسفية خفية، مثلما فعل الرافعي. وقد تكون الفكرة مطابقة للواقع، أو هي من وحي خياله، ولكنها في العموم تعبر عما يجول بداخله.

وعندما وقفتُ على نص الرسالة، تلك الرسالة التي أرى أن بها من الرمزية ما بها؛ لذا لجأ الكاتب إلى الكثير من التشخيص، وناسبت الاستعارة على الأخص هذا الأسلوب الفلسفي؛ لبلاغتها الشديد، ووجازتها، وأخذتُ أفكر فيما لو ربطت هذه الرسالة بالواقع، فما هي الدروس الحياتية المستفادة منها، فتوصلت إلى ما يلي:

أولا: قوله: (إني لأراك أيها القمر منذ علقت معاني ما أرى، ولكني لم أعرف أنك أنت كما أنت إلا بعد أن وضع الحب فيها بينك وبين قلبي وجه من أهواها).

وتعبيره بعلوق المعاني يدلل على مراعاة حسن التربية؛ لأن ما يتعلمه الطفل في مراحله الأولى يترسخ في ذهنه جيدا، وأسلوب القصر (لم أعرف أنك أنت كما أنت، إلا بعد أن وضع الحبيب فيها وجه من أهواها) يبين أن التطبع قد يغلب الطبع في بعض الأحيان؛ عندما تكون شخصية الإنسان راغبة هذا التغيير، كما أنه أظهر مراحل تطور العقل بالعلم، بل وحث عليه عندما علمه الحب معاني جديدة؛ كنظرته الجديدة لماهية القمر.

ثانيا: قوله ووصفه للقمر في مرحلة ما قبل الحب وبعدها تجعلنا لا نتسرع في الحكم على الأشياء من غير مجاورتها، فقد تكون الأشياء جميلة ولم نعرف قيمتها؛ لأننا لم نتأمل بها ولو للحظة، وبالوقت نفسه لا نترك للعاطفة الحكم على الأشياء بعيدا عن العقل؛ لأنه قد يصل بنا هذا الأمر لعدم رؤية العيوب، كما فُهِمَ من قول

الرافعي: أتذكر وقد لمستَ فكري بضوئك لمسة نور، فأظهرتها لي كأنها في جمالها الطاهر شكل ديني، وُضع ليكون مثالًا لعبادة القلب الإنساني؟.

ثالثا: قوله: أترى يا قلبي كأن في الوجود الذي حولنا أنوثة وذكورة فهو بالقمر تحت الليل يعبر عن نفسه تعبيرًا نسائيًّا في منتهى الرقة؛ لأنه قوي شديد، وفي غايته التفتر؛ لأنه مشوب متضرم، وفي كمال الدلال؛ لأنه في كمال الإغراء، وفي أقصى الحياء؛ لأنه يبعث بهذا الحياء فيما حوله أقصى الجرأة؟ تعبيرُ امرأة معشوقة جميلة ترف بأندائها وليس فيها إلا صفات، وبالشمس على النهار يعبّرُ الوجود عن نفسه تعبير رجل مقدام ليس فيه غيرُ القوة والحركة والاندفاع. تعبيرَ رجل جبار يحمل عزائمه التي يحترق بها، وليس فيه إلا صفات النار!

يبين فيه المفارقة بين طبيعة الرجل والمرأة؛ فهي تمتلك جميع صفات الكمال، والرجل لا يمتلك إلا صفات القوة التي تمكنه من حمايتها وإشعارها بالأمان، مما يجعل الرافعي المرأة هي المسؤولة عن فض المنازعات بينها وبين شريك حياتها. لكني أعتقد أن الرافعي كان يشعر بالتقييد والتحفظ نحو أسرته التي لا يستطيع الانفكاك عنها بتحقيق رغباته، لذا جعل الرجل يحمل عزائمه ويحترق بها احتراقا، ولو ما كانت الحالة النفسية للرافعي هكذا لذكر للرجل صفات أخرى، فكم من رجال بها من الحنان والرأفة والتعاون المثمر، وكم منهم أيضا من يقتدي برسولنا الكريم ﷺ في إعمار البيت، وبناء ذات الزوج.

رابعا: قوله: (أترى يا قلبي كأنَّ مدينةَ الحياةِ في النهارِ بصراعها وهمومها تحتاج إلى قفر طبيعيٍّ يفِرُّ إليه أهلُ القلوبِ الرقيقة بضع ساعات)، فكأنه يقول لك: من أجل الحكم على الأشياء جيدا يجب أن تعتزل الناس، وتلجأ إلى الله -عز وجل- والتأمل في ملكوته، فإن الخلوة تحيي الضمير، وتحتاج لها النفس، ويتجدد بها الأمل.

خامسا: قوله: (أترى يا قلبي كأن هذا القمر إنما يلقي النور على الحلم الروحاني اللذيذ الغامض الذي يحلم به كل عاشق من أول درس في الحب، ساعة ترسل الحبيبة إلى قلبه رسالة عنها، ولا يحلم بمثله في غير العشاق إلا أعظم الفلاسفة، وفي آخر دروس فلسفته، وبعد أن تكون الليالي الطويلة قد أطلعت في سماء عمره قمرَ الشيخوخة من شعره الأبيض؟)

تستنبط منها عدم اليأس من الوصول إلى الأماني، فقد يبلغ المرء أرذل العمر وتبلغ رأسه شيبا وهو يبحث عن أمانيه.

سادسا: قوله: (أترى يا قلبي أنه ليس في الحب إلا عواطف مكبرة يثيرها دائمًا وجه الحبيب، فلا بد أن يكون دائمًا وجه الحبيب طالعة فيه روح القمر؟)

يدعونا الرافعي فيه إلى التواصل مع الأحبة؛ فهم الداعم الأصيل لنا دائما؛ فوجوههم كالمصابيح تنير لنا الطرق، كما ينير لنا القمر هذه الدنيا.

وما هي إلا اجتهادات أحاول بها إخراج النص من نسقه المغلق إلى النسق المفتوح؛ للاستفادة منه، وربطه بالواقع الذي أعيش فيه، إلى جانب الاستفادة البلاغية العالية التي أَثْرتْ قريحتي؛ عندما وقفت بالتحليل على هذه الرسالة.

***

الخاتمة

- **توفر عناصر الإقناع بكثرة وتنوعها وتكاملها وترابطها، حتى كانت سببا في توصيل المعنى الذي يريده الرافعي بقوة، وهو إقناع محبوبته بحبه الشديد لها، وتسليمه أيضا بما قدَّر الله له معها.**
- **تنوع الاستدراك في رسالة "القمر" من المألوف الذي يدفع توهم ما تقدم عليه إلى الاستدراك الذي يرفع من شأن ما سبقه، أو القول بإنه كان ناقضا مرة، ومفسرا مرة، ومشوقا مرة أخرى تبعا للسياق والحوار.**
- **لقد أثر الاستدراك على الأسلوب، وخاصة الصورة التشبيهية منه؛ لما له من البلاغة في تنبيه السامع ودهشته باستيقافه لما سيقوله آنفا.**
- **أدى الاستدراك دورا نفسيا وعقليا في توجيه المتلقي؛ من التوتر العاطفي إلى التسليم الهادئ بالمضمون.**
- **إن للاستدراك بعدا جماليا لا يقل عن بعده الإقناعي، يتجلى في عنصر المفاجأة والخرق البلاغي للتوقع، مما أضفي على النص جوا من الإثارة والتشويق الدائم وكسر الملل.**
- **إن بعض الاستدراكات تعمل كمرآة لشخصية الرافعي؛ حيث فضحت مشاعره وتوتره الناتج عن كَبْحِها، ومحاولته الموازنة بين القلب والعقل، مما كشف عن العمق الوجداني للنص.**
- **الانتقال من الإقناع بالخبر من بداية الرسالة، ثم الانتقال إلى الإقناع بالإنشاء في منتصفها؛ لأن النفس عندما تبدأ في الحديث تكون هادئة، ثم يمتلكها الاضطراب والثورة بعد التعمق في وصف ما يحب؛ دلالة على معرفة الرافعي الجيدة بالنفس البشرية.**
- **تكرار الأسلوب الإنشائي المتمثل في الاستفهام، والذي خصه لمخاطبة القمر والقلب؛ ليناسب حبه الخفي في نفسه، وسؤاله للقلب بالفعل (يرى)؛ لأن**

القلب يرى، ورؤيته بالإحساس والشعور، والقلب المؤمن شعوره صادق لا يخيب. بينما ناسب الفعل (أَتَذْكُر) القمر الذي جعله شاهدا وحيدا على هذا الحب.

- **استخدام الرافعي الإقناع بالتصوير الحسي فاتسمت رسالته بعمق الخيال، وخاصة استعاراته التي ناسبت فلسفته في الحب، وتشبيهاته التمثيلية التي يكون لها أثر عميق في النفس.**
- **كان لفلسفته بعدٌ حياتي ملحوظ أفاد المخاطب في تنمية الفكر واللغة لديه.**
- **انتقى الرافعي من الآليات اللغوية الإقناعية ما يخدمه في التأكيد على صدق ما يشعر؛ للوصول إلى الأحلام الروحانية التي تشبع نفسه وروحه.**
- **كان للتشويق التعبيري لدى الرافعي حظٌّ في رسالته، وخاصة في خلق لغة الحوار في النص بينه وبين القمر والقلب.**
- **تأثير البعد العاطفي على الأسلوب في الرسالة؛ حتى جعله يختار الجديد وغير المألوف منه، كمثل تشبيهه للقمر بالتلسكوب الذي يكبر العواطف.**
- **الكنايات في الرسالة كانت غامضة وغير مباشرة تناسب خفاء المشاعر في قلبه.**

أهم التوصيات:

١- بلاغة الاستدراك في النص الإعلامي أو الدعوي.

٢- اختلاف الأسلوب البلاغي الإقناعي للرافعي بين النثر والشعر.

٣- التماسك النصي في رسائل الرافعي دراسة بلاغية.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

***

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

❖ **إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: لعبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، س٢٠٠٤م.**

❖ **الأعلام: لخير الدين الزركلي: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، مايو ٢٠٠٢م.**

❖ **أوراق الورد رسائلها ورسائله: تأليف: مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة هنداوي، عام ٢٠١٢م.**

❖ **بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب: للدكتور حسن المودن، مكتبة لسان العرب، دار كنوز للمعرفة، عمان الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.**

❖ **تطور الأدب الحديث في مصر: للدكتور أحمد عبد المقصود هيكل، دار المعارف، الطبعة السادسة، ١٩٩٤م.**

❖ **حديث القمر: لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.**

❖ **حياة الرافعي لمحمد سعيد العريان: المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي مصر، الطبعة الثالثة، س١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.**

❖ **دلائل الإعجاز: للإمام عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة مدني، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.**

❖ **شذا العرف في فن الصرف: تأليف الشيخ أحمد الحملاوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، دمشق سوريا، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.**

❖ **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني، مؤسسة قرطبة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.**

❖ **الفلاسفة والحب: الحب من سقراط إلى جان بول: ترجمة دينا مندور، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.**
❖ **الفلسفة ببساطة: برندان ولسون، ترجمة آصف ناصر، دار الساقي، أبو ظبي– الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.**
❖ **في الأدب الفلسفي: الدكتور محمد شفيق شيّا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، لبنان، بدون.**
❖ **لسان العرب: لجمال الدين بن منظور، دار بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.**
❖ **اللغة والحجاج: للدكتور أبو بكر العزاوي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، س١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.**
❖ **مذكرات في أدوات الربط والوصل في اللغة العربية: الدكتور عبد الله جفال الحديد، الجامعة العربية المفتوحة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.**
❖ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: للإمام جمال الدين بن هشام، تحقيق: أ.د/ صلاح عبد العزيز علي السيد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.**
❖ **من أول نظرة في الجنس والحب والزواج: لأنيس منصور، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩م.**
❖ **وحي الرسالة: لأحمد حسن الزيات، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، الطبعة السابعة، ١٩٦٢م.**
❖ **وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.**

الأبحاث العلمية:

❖ **الأبعاد الحجاجية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: أ.محمد يزيد سليم، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد السادس، جوان، ٢٠١٨.**

❖ **الأساليب الإقناعية للعلاقات العامة وتكوين الصورة الذهنية في المؤسسات الكويتية: للدكتور فهد هادي فلاح مطلق، المجلة العلمية لبحوث الإعلام وتكنولوجيا الاتصال، العدد التاسع، يناير، يونيو ٢٠٢١م.**

❖ **أساليب التشويق في المقال الأدبي عند الرافعي: للدكتور عبد الحميد محمد بدران، أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالمنصورة، حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثاني والثلاثون، إصدار ٢٠١٧م.**

❖ **التداولية: المصطلح وقضايا المنهج، والتداولية العربية، حازم القرطاجني أنموذجا: دكتورة نادية لطفي ناصر، مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية، مجلة علمية محكمة، (ISSN:٢٥٣٦-٩٥٥٥).**

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	**٣٣٩**
المقدمة	**٣٤١**
التمهيد وبه:	**٣٤٥**
– المقصود بالاستدراك وأداته، وأثره البلاغي والتداولي.	**٣٤٥**
– نبذة عن الرافعي وأدبه	**٣٤٧**
– نص الرسالة محل الدراسة ومدخل لها.	**٣٤٨**
المبحث الأول: الأساليب الإقناعية المستخدمة في رسالة القمر	**٣٥٣**
المبحث الثاني: تنوع الاستدراك وبلاغته في البنية الإقناعية لرسالة القمر	**٣٧٤**
المبحث الثالث: رسالة القمر من النسق المغلق إلى النسق المفتوح	**٣٨٤**
خاتمة	**٣٨٧**
المصادر والمراجع	**٣٨٩**
فهرس الموضوعات	**٣٩٢**